دكتور / محمد عثمان الخشت

المشاكل الزوجية وحلولها

في ضوء الكتاب والسنة والمعارف الحديثة





المشاكل الزوجية وحلولها

في ضوء الكتاب والسنة والمعارف الحديثة

محمد عثمان الخشت

مكتبة القرآن

الكتاب : المشاكل الزوجية وحلولها

المؤلف : د. محمد عثمان الخشت　　　تصميم غلاف : إبراهيم محمد إبراهيم

رقم الإيداع : ٥٦٤٤ / ١٩٨٤　　　الترقيم الدولى : 5 - 25 - 1340 - 977

الناشر

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٤٠ شارع رشدى - عابدين - القاهرة
تليفون : ٣٩١٨٦٩١ - ٣٩١٧٣٣٢ فاكس : ٣٩٣٧٣٢٦٠

• • • • •

توزع منشوراتنا بالمملكة العربية السعودية لدى وكيلنا الوحيد مكتبة الساعى للنشر والتوزيع

الرياض - هاتف : ٤٢٥٣٧٦٨ - ٤٢٥١٩٦٦ فاكس ٤٢٥٥٩٤٥ جدة هاتف : ٦٥٣٢٠٨٩ - ٦٥٢٤٠٩٥ فاكس : ٦٥٢٤١٨٩

طبع بمطابع ابن سينا القاهرة ت : ٣٢٠٩٧٢٨

Web site : www.alkoran-eg.com　E-mail : info@alkoran-eg.com



مقدمة

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

بثَّ الله سبحانه وتعالى في كيان كل جنس ميلاً وحبًا للجنس الآخر، وجعل سبحانه المرأة في حاجة إلى الرجل، والرجل في حاجة إلى المرأة... إن أحدهما لفي حاجة إلى الآخر حتى يندفع إليه بكل كيانه ومكوناته آملاً أن يجد عنده الهدوء والاطمئنان، والحب والحنان، والسكينة والاستقرار.

إن أحدهما لفي حاجة إلى الآخر حتى يفضي إليه بكل أحاسيسه وعواطفه ومشاعره وأفكاره، ويكشف له عن كل همومه وأسراره، ويشاطره حلو الحياة ومرها، وسراءها وضراءها، ويتجاوب معه تجاوبًا مثمرًا فعّالاً، يجعله لا يأبه بهموم الحياة ومنغصاتها، يجعله ينطلق انطلاقة القوي القادر على حل مشكلاتها وتعقيداتها.

إن الاتصال الوثيق بين الرجل والمرأة، لا يُعبر عنه بأجمل من مثل هذا التعبير: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴿١٨٧﴾﴾. [البقرة: ١٨٧].

فإذا كان اللباس سترًا وصيانة، وهو ألصق الأشياء بلابسه.. فكذلك العلاقة بين الزوجين تستر كل منهما، وتصونه، وتقيه، وتجعلهما حين يلتقيان شيئًا واحدًا ممتزجًا لا تستطيع له فصلاً ولا حدًا.

والعلاقة بين الزوجين لا تنبثق من أصل التكوين الإنساني فحسب، بل من أصل تكوين الكون وكائناته كافة .. وهذا يتضح بجلاء في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا

تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس : ٣٦] .
ومن قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾
[الذاريات : ٤٩] . ولعل هذا يوضح لنا أحد سمات الإسلام العامة في ربطه بين النظام الإنساني والنظام الكوني .

والإسلام ينظر إلى العلاقة بين الزوجين باعتبارها النواة الأولى التي تنبثق عنها سائر العلاقات البشرية في المجتمع الإنساني . ويرى أنها الأصل الأهم بين أصول الحياة الاجتماعية ، التي لا يمكن للمجتمع أن يقوم قيامًا سليمًا إلا بها؛ فهي الخلية الحيوية الرئيسية التي إن صلحت صلح المجتمع كله، وإن فسدت فسد المجتمع كله .

ونظرًا لأهمية العلاقة الزوجية وأثرها العميق في البناء الكلي للأمة، فإن الإسلام قد أولاها رعاية خاصة وفريدة، حيث وضع لها من المناهج التنظيمية ما يضمن لها قسطًا وفيرًا من السعادة والهناء .

وفي هذا الكتاب محاولة متواضعة لرسم إطار وقائي للأسرة ، يقيها المشاكل والاضطرابات، مع محاولة وضع منهج علاجي لأي مشاكل أو خلافات طارئة، في ضوء القرآن والسنة ، والاستعانة بالمعارف الحديثة، كلما أمكن ذلك .

والله تعالى أسألُ أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن ابتغاء وجهه الكريم، إنه سميع الدعاء .

د. محمد عثمان الخشت



الزوج المثالي

هو الذي يتميز بالصدق والصراحة منذ الوهلة الأولى ، فلا يُخفي عند الخطبة ما تكرهه المرأة عادةً من الرجل. قال عليه السلام: «**إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب السواد، فليعلمها أنه يخضب**»[1] أي يصبغ شعره.

وهو الذي يحسن معاشرة زوجته، فيكون لطيفًا بها، مكرمًا لها في نفسها، وفي أهلها، وفي كل مَالَها. قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴿١٩﴾﴾ [النساء : ١٩] .

وقال عليه الصلاة والسلام: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي. ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم**»[2]. والزوج المثالي هو الذي يداعب زوجته ويلاطفها، ويعطيها حقها في اللهو والمرح البريئين. وذلك بوسائل متعددة تتماشى مع استطاعته وإمكاناته إما بسمر أو برحلة أو بزيارة أو بمشاهدة حفل يتفق والمنهج الإسلامي. والأدلة على ذلك من حياة الرسول الزوجية سأذكرها في الفصل القادم. والزوج المثالي هو الذي يكون معتدل الغيرة، فلا يترك لظنونه العنان، ولا يتجسس، ولا يبالغ في الريبة، لأنه يعلم أن هذا يفضي إلى انفصام عرى المحبة، ويعكر صفو الحياة، وينكد المعيشة. ولذا فهو يشعر زوجته دائمًا بالثقة فيها، ويتجنب أي شيء يخدش كرامتها. يقول الرسول ﷺ: «**إن من الغيرة غيرةً يبغضها الله عز وجل، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة**»[3].

وهو في مقابل هذا لا يقبل أي تقصير أو منكر أو تعدّ للحد. وقد روي أن معاذًا رضي الله عنه رأى امرأته وقد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها؛ فاستنكر منها معاذ ذلك الموقف؛ لأنه قد يكون في ذلك احتمال إثارة الغلام جنسيًا حين يتخيل الموضع التي أكلته من التفاحة، ثم يتخيل فمها ثم.. ثم.. ، فغيرة معاذ هنا في موضعها وهي ضرورية. قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن عائشة . (٢) رواه ابن عساكر عن علي . حديث صحيح .
(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة .

«ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مُدْمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يُقرّ الخبث في أهله»[1].

والزوج المثالي : هو الذي يحسن الحديث مع زوجته، فيكلمها بأسلوب رقيق مهذب، فالكلمة الطيبة لها أثر طيب في النفس والوجدان. وهو يحسن الاستماع إلى حديثها، ويقدر رأيها، ويضعه موضع التنفيذ إذا كان سليمًا، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد أخذ برأي أم سلمة يوم الحديبية، فكان في هذا صلاح المسلمين وسلامتهم.

والزوج المثالي هو الذي ينفق على أهله في اعتدال، فلا يسرف ولا يبخل ، قال تعالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق : ٧] .

وقال ﷺ : **«دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة - تحرير عبد - ، ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك»**. [رواه مسلم] . وكما يهمه أن يرتدي الملابس الأنيقة، وأن يأكل الطعام الطيب ويشرب الشراب الهنيء ، يهمه ذلك أيضًا تجاه زوجته شريكة حياته. ولا يليق بذي مروءة أن يمتع نفسه بأشياء ثم يَحْرِم زوجته منها !

سأل رجل رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : **«أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبّح، ولا تهجر إلا في البيت»** . رواه أبـو داود . وقال ﷺ : **«ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»** . [رواه الترمذي وابن ماجة] . وقال : **«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع مَنْ يقوت»** [رواه أبو داود وغيره] .

وقال : **«إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي صدقة»** . [رواه البخاري] .

والزوج المثالي : هو الذي يبدو دائمًا أمام زوجته حسن المظهر جميل الهيئة، فلا ترى إلا جميلاً ولا تشم منه إلا طيبًا. يقول عليه الصلاة والسلام: **«اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعوركم، واستاكوا، وتزينوا وتنظفوا، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك، فزنت نساؤهم»** . [رواه الطبراني] .

---

(١) رواه أحمد (٦٩٢) ورواه النسائي والبزار والحاكم بنحوه من حديث عبد الله بن عمر .

وقال : «**مَنْ كان له شعر فليكرمه**» . [رواه أبو داود ، حديث صحيح] .

ولا تقتصر نظافة الرجل على الشكل الخارجي فحسب ، بل تشمل كذلك الأعضاء الداخلية.. يقول الرسول ﷺ : «**عشرة من الفطرة : قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار وغسل البَرَاجِم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة، وانتقاص الماء**»(1) .

ولبيان مدى أثر نظافة الزوج وعنايته بمظهره في نفس الزوجة ، سأورد الحادثة التالية :

رُوي أنه قد دخل علي الخليفة عمر بن الخطاب زوجٌ أشعث أغبر، ومعه امرأته وهي تقول: لا أنا ولا هذا (يعني : أُريد الطلاق) يا أمير المؤمنين، فعرف كراهية المرأة لزوجها، فأرسل الزوج ليستحم ويأخذ من شعر رأسه ويقلم أظافره، فلما حضر أمره أن يتقدم من زوجته، فاستغربته ونفرت منه، ثم عرفته فقبلت به ورجعت عن دعواها. فقال عمر: وهكذا فاصنعوا لهنّ، فوالله إنهن ليحببن أن تتزينوا لهنّ كما تحبون أن يتزيَّن لكم!

والزوج المثالي هو الذي يحفظ أسرار حياته الزوجية، فلا يتحدث بشيء منها ، فتنهبه الأسماع والأفواه! قال ﷺ : «**إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه** (كناية عن اللقاء الجنسي) **ثم ينشر سرها**» . [رواه مسلم وغيره] .

والزوج المثالي : هو الذي يحافظ على مظاهر رجولته، ولا يفرط في أي سمة من سمات الرجولة، سواء كانت شكلية أم نفسية، ولا يلين إلى الحد الذي يسقط هيبته ووقاره. وعن أبي هريرة أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ الرجل الذي يلبس لبسة المرأة . .» [أبو داود والحاكم، صحيح].

وعن ابن عباس أنه قال : «لعن رسول الله ﷺ .. المتشبهين من الرجال بالنساء» . [أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجة. صحيح] .

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال : «لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال ..» [البخاري في الأدب والترمذي صحيح] .

وأخيرًا فإن جماع الأمر كله : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء : ١٩] .

---

(١) رواه عن عائشة : أحمد في مسنده ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي، وابن ماجة. حديث صحيح . والبراجم : مفاصل اصابع. وانتقاص الماء: هو الاستنجاء والعاشرة: المضمضة. صحيح مسلم ٢٢٣١ ، كنز العمال ١٧٢٣٤/٦

مثالية الرسول في حياته الزوجية

رأينا فيما سبق من هو الزوج المثالي في نظر الإسلام، ولكن هل اكتفى الإسلام بتشريع هذه المبادئ النظرية؟ أم دخل بها إلى حيز التطبيق والتنفيذ؟

هذا ما سيجيب لنا عنه الرسول ﷺ ، عن طريق معرفتنا لبعض ما كان عليه في حياته الزوجية .

مرح الرسول مع زوجاته الطاهرات :

لم يجعل من هيبة النبوة ووقارها حاجزًا منيعًا بينه وبين زوجاته ، بل آنسهن بمرحه وملاطفته..

قالت عائشة رضي الله عنها : «دعاني رسول الله ﷺ والحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد في يوم عيد، فقال لي : يا حميراء، أتحبين أن تنظري إليهم؟ فقلت : نعم . فأقامني وراءه، فطأطأ لي منكبه لأنظر إليهم، فوضعت ذقني على عاتقه، وأسندت وجهي إلى خده، فنظرت من فوق منكبه، وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة، فجعل يقول: يا عائشة، ما شبعت؟ فأقول: لا ، لأنظر منزلتي عنده، حتى شبعت. قالت: وما بي حب أنظر إليهم، ولكني أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي: ومكاني عنده، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو» . [أخرجه الشيخان] .

وقالت عائشة - أيضًا - : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو حنين، وفي سهوتها ستر[1] ، فهبت ريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لُعب. فقال : **ما هذه يا عائشة؟** قالت : بناتي!

ورأى بينهنّ فرسًا له جناحان من رقاع، فقال : **ما هذا الذي أرى وسطهنّ؟!**

قالت : فرسي!

قال : وما الذي عليه ؟!

قالت : جناحان !

(١) بيت صغير شبيه بالخزانة أو المخدع ، وقيل غير ذلك .

قال : **فرس له جناحان ؟!**

قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟

قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه» . [رواه أبو داود] .

وروى أحمد وأبو داود والنسائي : «أن عائشة كانت مع رسول الله ﷺ في سفر، وهي جارية، قالت: لم أحمل اللحم ولم أبدن (أي لم أسمن). فقال لأصحابه: **تقدموا**، فتقدموا. ثم قال: **تعالي أسابقك**. فسابقته، فسبقته على رجلي. فلما كان بعد، خرجت في سفر معه، فقال لأصحابه: **تقدموا**. ثم قال: **تعالي أسابقك**، ونسيتُ الذي كان، وقد حملت اللحم وبدنت (أي وسمنت) ، فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ قال: لتفعلن. فسابقته، فسبقني فجعل يضحك ويقول : **هذه بتلك السبقة**» .

مداعبة الرسول لزوجاته :

قالت عائشة رضي الله عنها : «كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في، فيشرب! وأتعرّق العرْق (أي اللحم المختلط بالعظم) وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ» . [رواه مسلم] . وجاء : «كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه، تختلف أيدينا عليه! فيبادرني حتى أقول: دعْ لي، دعْ لي! قالت: وهما جُنُبان» . [رواه البخاري ومسلم وغيرهما] . و«كان الرسول ﷺ يداعب عائشة بترخيم اسمها، فيقول : **يا عائش**» ! [رواه البخاري ومسلم].

الرسول يتطيب لزوجاته :

«سُئلت عائشةُ رضي الله عنها، بأي شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل؟ قالت بالسواك». [رواه مسلم] .

وأخرج النسائي والترمذي أن عائشة قالت للنساء: «مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء، فإني أستحييهم منه، فإن رسول الله ﷺ كان يفعله» .

و«كان ابن عمر يستجمر بالألوة غير مطراة، وبكفور يطرحه مع الألوة، يقول: هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ»[1] [رواه مسلم والنسائي. حديث صحيح] .

---

(١) الاستجمار : الاستجاء بالأحجار . والألوة بفتح الهمزة وضمها : العود الذي يتبخر به. ومطراة: العود المطري .

و«كان لرسول الله ﷺ سُكّة يتطيب منها» . [رواه أبو داود. حديث حسن] .

الرسول يعاون زوجاته في شئون المنزل :

قالت عائشة : «كان رسول الله ﷺ يكون في مهنة أهله[1]، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة» رواه البخاري والترمذي. وكان يخصف نعله، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويحمل أطفاله.

وفاء الرسول لزوجاته:

لعل أكبر مثال على ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها حين قالت : [ما غِرْتُ على امرأة قط ما غرتُ على خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ إياها. ولقد ذكرها يومًا ، فقلت : ما تصنع بعجوز حمراء الشدقين؟! قد أبدلكَ الله خيرًا منها! فقال ﷺ : «**والله ما أبدلني الله خيرًا ؛ آمنتْ بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء**» . رواه البخاري مختصرًا وأحمد والطبراني كما أشار إليه ابن حجر في «الفتح»] .

ولم تجسر عائشة الزوجة الشابة ذات الحظوة أن تجري ذكر خديجة على لسانها بعد تلك القضية .

فمن ذا الذي كان محمد ﷺ يصانعه، وهو يفي لخديجة هذا الوفاء الجميل الذي يستحق أن يكون مضرب الأمثال لسائر الأزواج: رجالاً ونساء!

أتراه كان يصانع التي ماتت ليغضب التي يعيش معها ويحبها؟! ما القول في هذا الوفاء المعجز، والدنيا حافلة حولنا بأمثلة العقوق ونسيان الفضل وخيانة العهد؟ [2]

حزم الرسول مع زوجاته :

روى مسلم في صحيحه (١١٠٤/٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ ، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم. قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فأستاذن فأذن له، فوجد النبي جالسًا ، حوله نساؤه،

---

(١) أي في خدمة أهله .

(٢) «محمد في حياته الخاصة» (ص : ٥٦) للدكتور نظمي لوقا .

واجمًا، ساكتًا، قال: فقال : لأقولن شيئًا أضحك النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة! سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله ﷺ وقال: **«هن حولي كما ترى يسألنني النفقة»** . فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ما ليس عنده؟! فقلن: والله ما نسأل رسول الله ﷺ شيئًا أبدًا ليس عنده .

ثم اعتزلهنّ شهرًا ، أو تسعًا وعشرين - أي يومًا - ثم نزلت هذه الآية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩] .

قال فبدأ بعائشة ، فقال : « يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك» . قالت: وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلتُ.

قال : **«لا تسألني امرأةمنهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا** (أي لم يبعثني مشددًا على الناس ولا طالبًا زلتهم) ، **ولكن بعثني معلمًا ميسرًا»** .

فما أحوجنا نحن - المسلمين - إلى مثل هذا الحزم في مثل تلك المواقف حتى تستقيم حياتنا وتسير بنا السفينة الزوجية إلى بر الأمان. فإن إلقاء الحبل على الغارب لمعظم النساء يؤدي إلى عواقب وخيمة ذات أثر فعال في تصدع الحياة الزوجية .

عدل الرسول مع زوجاته :

كان حريصًا أشد الحرص على أن يبدو دائمًا باسمًا في وجوههن، وإذا خلا بهن «كان ألين الناس ضاحكًا بسامًا» كما أخبرت عائشة رضي الله عنها . وكان يزورهن جميعًا في الصباح والمساء . وكان إذا أراد السفر يقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها معه .

وبلغ من عدله ﷺ معهن أنه كان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهن، وهذا فيما يتعلق بميل قلبه ، فكان يقول : **«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»**.

وحتى في أثناء مرض وفاته ، قام يطوف بأزواجه كما عوّدهن. ولكن عندما اشتد عليه الألم، ولم يُطق مغالبته دعا نساءه إليه في بيت ميمونة. وتلطف في سؤالهن: «أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا ؟» .. فأذِنَّ له – بعد أن رأين حاله – أن يُمرَّض في بيت عائشة .

تكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد ﷺ عن هذه الجوانب المثالية، وغيرها كثير، ولا أحب الاستطراد أكثر من ذلك ؛ ففي هذا الكفاية لبيان الاتساق بين الجانب النظري، والجانب التطبيقي في الحياة الزوجية الإسلامية .

الزوجة المثالية

الزوجة المثالية : هي التي تجعل زوجها دائمًا يأنس منها التجمل والزينة، والتي تحرص على أن تبدو نظيفة دائمًا في نفسها وفي بيتها وكل متعلقاتها؛ لأنها تعلم أن النظافة أبقى لها من الجمال، وأن الزوجة المهملة لنظافتها تصبح منفرة لزوجها ومشجعة له على أن يرتمي في أحضان أخرى نظيفة .

والزوجة المثالية : هي التي تطيع زوجها في غير معصية ، أما لو أمرها بمعصية فهي لا تطيعه ولا تستجيب له، بل ترشده بالقول اللين والموعظة الحسنة .

قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴿٣٤﴾﴾ [النساء : ٣٤].

والقانتات : هن المطيعات لله القائمات بحقوق الأزواج . والحافظات للغيب : أي اللائي يحفظن أنفسهن وأموال أزواجهن في غيبتهم، كما يحفظن أسرار الزوجية .

والزوجة المثالية : هي التي تربي أولادها بنفسها، ولا تتركهم للخدم أو للشارع أو ليد غير يدها. وهي تربيهم على الصلاح والاستقامة وحسن السلوك؛ لأنها تعلم أن هذا جزء من مهمتها في بناء المجتمع. يقول الرسول ﷺ : «الزوجة راعية وهي مسئولة عن رعيتها» . «المرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها»[1] .

ورحم الله شاعر النيل إذ يقول :

الأم مـــدرســـة إذا أعـــددتـــهـــا   أعـددت شـعـبـا طـيـب الأعـراق

(١) رواه عن ابن عمر : أحمد في مسنده والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي. حديث صحيح.

والزوجة المثالية هي القانعة التي ترضى بما يقسم لها قلّ أو كثُر، فلا تطلب من زوجها ما لا يستطيع ولا تمس الحاجة إليه . قال تعالى : ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقال ﷺ : «**أعظم النساء بركة أيسرهن مؤنة**»[1] . وكان من أدب نساء السلف رضي الله عنهن – إذا خرج الرجل من منزله– أن تقول له امرأته أو ابنته: «إياك وكسب الحرام؛ فإنّا نصبر على الجوع،ولا نصبر على النار» .

والزوجة المثالية : هي التي تحسن تدبير شئون المنزل ، وتضع ما لديها من مال في خير موضع وفي أفضل سبيل. ولا يعني حسن التدبير معرفة استخدام الأموال فحسب، بل يشمل كل ما يتعلق بأمور المنزل، فالاعتناء بالملابس والأثاث وخلافه يجعل مدة استعمالها تطول ولا تبلى سريعًا. مما يؤثر أبلغ الأثر في سعادة الأسرة وسرورها، لأن هذا من شأنه أن يخفف الأعباء عن الزوج، وبالتالي ينظر إلى زوجته نظرة حب واحترام .

والزوجة المثالية : هي التي تتحلى بالخلق الحسن ، فيبدو كل تصرف من تصرفاتها حسنًا، ولا تتلفظ إلا بالألفاظ الحسنة التي تريح زوجها، ولا تحاول إثارة همومه وتنغيص عيشته، وتستقبله دائمًا بالكلمات الطيبة والابتسامة الحانية. وتفرش له بساط الأنس والانشراح.

والزوجة المثالية : هي التي تحسن معاشرة أهل زوجها، وخاصة أمه التي هي أقرب الناس إليه، فيجب أن تتودد إليها، وتتلطف بها، وتظهر الاحترام لها .

والزوجة المثالية : هي التي تحترم مشاعر زوجها، فهي دائمًا مشاركة له في وجدانه وأحاسيسه ، تراعي دائمًا أن تكون عفيفة اللسان ، تتخير من الأقوال والأفعال ما لا يجرح شعوره أو يسبب له إحراجًا. وتُشعره دائمًا بأنها تحبه وتعتز به، وإن تجاوزت في ذلك بعض الصدق فلا ضرر، من أجل الحفاظ على الانسجام وتقوية أواصر الزوجية .

روى البخاري ومسلم عن أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا ، أو يقول خيرًا**» . قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: يعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث

---

(١) لأحمد في مسنده ، وللحاكم في مستدركه ، وللبيهقي في شعب الإيمان، عن عائشة حديث صحيح .

الرجل امرأته والمرأة زوجها. فهذا حديث صريح في إباحة تجاوز بعض الصدق بين الزوجين من أجل المصلحة .

والزوجة المثالية : هي التي تشكر زوجها على جميل صنيعه، لأن هذا يولد المحبة ويعطي المحسن دفعة لبذل مزيد من التفضل والإحسان .

قال ﷺ : **«خير النساء التي إذا أُعطيَتْ شكرت، وإذا حُرِمَتْ صبرت، تسرك إذا نظرتَ،وتطيعك إذا أمرت»**.

وكم أجدني مشدودًا لذكر تلك الوصية الجميلة التي أوصت بها أم أعرابية ابنتها ليلة زفافها، فإن تحلي الزوجة بالخصال التي ذكرت فيها من شأنه أن يجعلها زوجة مثالية تمثل مصدر هناء وسعادة لا حد لهما للزوج.

قالت الأعرابية : «يا بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا وملكًا.. فكوني له أمة يكن لك عبدًا .

يا بنية ، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لمواقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه: فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود .

والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مَغْضَبَةٌ .

والعناية ببيته وماله ، والرعاية لنفسه وحشمه وعياله ؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والرعاية للعيال والحشم حسن التدبير .

ولا تفشي له سرًا ، ولا تعصي له أمرًا ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره.

ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان حزينًا ، والاكتئاب إن كان فرحًا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير .

وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا ، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا ، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما يكون لك مرافقة .

واعلمي أنك لا تحصلين على ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك» .

هذه بعض جوانب المثالية التي يجب أن تتوافر في الزوجات المؤمنات، والتي من شأنها إن توافرت فيهن أن تعمل على وقاية الحياة الزوجية من المشاكل والاضطرابات، وتجعل العلاقة بين الزوجين قائمة على أساس من المودة والانسجام.

زوجات مثاليات

لعل أول زوجة مثالية تتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى هي خديجة رضوان الله عليها، التي قال فيها الرسول ﷺ : **«والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء»**[1] . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتتك، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب (جوهر) لا صخب فيه ولا نصب[2].

ومَن ذا الذي لا يعرف ما تميزت به خديجة من عقل راجح وأخلاق حسنة ومواقف بطولية عظيمة؟

وهل ينسى أحد تثبيتها للنبي، وتشجيعها إياه. ووضعها كل ما تملك تحت تصرفه من أجل تبليغ دين الله للعالمين؟

أم هل ينسى أحد قولتها المشهورة التي جعلت النبي مطمئنًا بعد اضطراب، لما نزل عليه الوحي لأول مرة: **«والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك تصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الزمان»**[3].

---

(١) رواه البخاري مختصرًا وأحمد والطبراني كما أشار إليه ابن حجر في «الفتح» .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البخاري ومسلم .

امرأة الحطاب :

ويروى أن رسول الله ﷺ أخبر أصحابه أن امرأة الحطاب من أهل الجنة بفضل صنيعها لزوجها، فلما سئلت قالت: إن زوجي إذا خرج يحتطب (يجمع الحطب من الجبال ، فيبيعه ويشتري ما يحتاجه) أحسُّ بالعناء الذي لقيه في سبيل رزقنا، وأحسُّ بحرارة عطشه في الجبل تكاد تحرق حلقي، فأعد له الماء البارد حتى إذا ما قدم وجده، وقد نسقت متاعي وأعددت له طعامه، ثم وقفت أنتظره في أحسن ثيابي، فإذا ما ولج (دخل) الباب استقبلته كما تستقبل العروس عروسها الذي عشقته، مسلمة نفسي إليه. فإن أراد الراحة أعنته عليها، وإن أرادني كنت بين ذراعيه كالطفلة الصغيرة يتلهى بها أبوها.

أسماء بنت أبي بكر الصديق :

روى في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه (بعيره الذي يحمل له الماء) ، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه، وأستقي الماء وأخرز غربه (دلوه)، وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إليَّ أبي بجارية، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني. ولقيت رسول الله ﷺ يومًا ومعه أصحابه، والنوى على رأسي، فقال ﷺ : أخ، أخ لينيخ ناقته ويحملني خلفه. فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت. فجئت الزبير وحكيت له ما جرى، فقال : والله لحَمْلُكِ النوى على رأسك أشدُّ عليَّ من ركوبك معه .

امرأة شريح القاضي :

يحدثنا التاريخ أن شريحاً القاضي قابل الشعبي يومًا ، فسأله الشعبي عن حاله في بيته، فقال له : من عشرين عامًا لم أرَ ما يغضبني من أهلي، قال له: وكيف ذلك؟

قال شريح ، من أول ليلة دخلت على امرأتي ، رأيت فيها حُسنًا فاتنًا وجمالاً نادرًا، قلت في نفسي: فلأطهر وأصلي ركعتين شكرًا لله، فلما سلمت وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء، قمت إليها فمددت يدي نحوها، فقالت: على رسلك يا أبا أمية كما أنت، ثم قالت: الحمد لله، أحمده وأستعينه،

وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأتركه، وقالت: إنه كان لك في قومك من تتزوجه من نسائكم، وفي قومي من الرجال من هو كفء لي، ولكن إذا قضى الله أمرًا كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به، ﴿إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ . أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولك.. ..!!

قال شريح : فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع ! فقلت : الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وأسلم، وبعد : فإنك قلت كلامًا إن ثبت عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجة عليك. أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما رأيت من حسنة فانشريها، وما رأيت من سيئة فاستريها!.

فقالت : كيف محبتك لزيارة أهلي ؟

قلت : ما أحب أن يملني أصهاري .

فقالت : فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك فآذن له؟ ومن تكره فأكره؟

قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء .

قال شريح : فبت معها بأنعم ليلة ، وعشت معها حولاً لا أرى إلا ما أحب ، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء ، فإذا بفلانة في البيت ، قلت : من هي ؟

قالوا : ختنك (أي أم زوجك) . فالتفتت إليّ وسألتني: كيف رأيت زوجتك؟

قلت : خير زوجة !

قالت : يا أبا أمية ، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين : إذا ولدت غلامًا ، أو حظيت عند زوجها، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شرًا من المرأة المدللة. فأدب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب .

فمكثت معي عشرين عامًا لم أعتب عليها في شيء إلا مرة وكنت لها ظالمًا !!

هكذا فلتكن النساء !!

البيت المثالي

البيت المثالي : هو البيت الذي أُسِّسَ بنيانه على تقوى من الله ورضوان من أول يوم قام فيه.. وذلك باتباع الكتاب والسنة ، والاحتكام الدائم إليهما عند أي خلاف ، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴿٥٩﴾﴾ [النساء : ٥٩] .

والبيت المثالي : بسيط في كل جوانبه، سواء كانت جوانب مادية أم معنوية. فأما من الناحية المادية فهو بعيد عن مظاهر الإسراف في المأكل والمشرب والأثاث والأدوات المنزلية وغيرها. قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١] . وفي صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان قال : «نهانا النبي ﷺ : أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير؛ والديباج[1] وأن نجلس عليه» ولا بأس بالتطريز اليسير بالحرير لأن رسول الله ﷺ نهى عن الحرير إلا هكذا (وأشار بإصبعيه اللتين تليان الإبهام – يعني نحو ٣ سم عرضًا) . [رواه البخاري عن عمر] .

ومن المعلوم أن كلامنا هذا لا ينصرف إلى مظاهر الزينة المعتدلة والمباحة ، بل ينصرف إلى الإسراف والتجاوز فحسب .. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

هذا فيما يتعلق بالبساطة في الجوانب المادية، أما البساطة في الجوانب المعنوية فأعني بها ما يتعلق بمناحي السلوك والتفكير؛ حيث إن أهل البيت المثالي المسلم يقتفون دائمًا منهج النبي السلوكي الذي أخبرت عنه عائشة رضي الله عنها حين قالت : «ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما». كما أنهم في تفكيرهم يبتعدون عن الغموض والسطحية، ويحرصون على الوضوح الذي يقترن دائمًا بالعمق والإيجابية .

والبيت المثالي : بيت طاهر نظيف ، فيه أناس يحبون أن يتطهروا ؛ لأنهم يعلمون أن : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة : ١٠٨] . وهم حريصون كل الحرص على أن يبدو

(١) الديباج : ثوب سداه ولحمته الإبريسم (حرير دودة القز) .

بيتهم جميلاً لأنهم يعلمون «أن الله جميل يحب الجمال» [(١)] .

ولذلك ترى هذا البيت خاليًا من القمامة والحشرات وكل ما يدخل مفهوم اللانظافة. قال رسول الله ﷺ : **«لا تتشبهوا باليهود ، كانوا يضعون الأكب** (القمامة) **في أفنية بيوتهم»**.
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«من قتل وزغًا في أول ضربة كتب له مائة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك»** . وقال ﷺ : **«النظافة من الإيمان»** .

والبيت المثالي يقوم على قواعد مُحْكَمة من السكينة والمودة والرحمة، وهو بمعزلٍ عن الضوضاء والصخب، ليست فيه أصوات مرتفعة ولا صارخة ، قال تعالى : ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان : ١٩].

ودائمًا تعلو وجوه أفراده الابتسامة الصافية الرقيقة التي لها أبعد الأثر في نفس المبتسم والمبتسم له؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : **«تَبَسُّمُكَ في وجه أخيك صدقة»** [(٢)] .

وهذا البيت في قيامه على المودة والرحمة إنما يُعَد اللبنة الأولى لبناء مجتمع الجسد الواحد القائم أيضًا على المودة والرحمة، ذلك أن المجتمع في النهاية ما هو إلا مجموعة أُسر، فإذا استطعنا أن ننشئ الأسرة المتوادة المتراحمة فإنّا بالضرورة قد أنشأنا المجتمع المتواد المتراحم .

وهذا المفهوم يتجلى لنا من قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١] . فهنا تقرير لما عليه الأسرة المؤمنة من التواد والتراحم، ثم تتسع الدائرة، فيصف الله تعالى مجتمع المؤمنين بقوله : ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح : ٢٩] .. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة : ٥٤] . كما يصف الرسول هذا المجتمع بقوله: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد..»** .

والبيت المثالي : يجعل لكل طفل أو ابن فراشه الخاص ، لأن التفريق بين الأولاد في المضاجع أمر مطلوب، لقول النبي ﷺ : **«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»** [رواه أبو داود] .

---

(١) لمسلم والترمذي ، كلاهما عن ابن مسعود، والطبراني في الكبير عن أبي أمامة. وللحاكم في مستدركه عن ابن عمر، حديث صحيح .
(٢) للبخاري في الأدب، والترمذي، ولابن حبان في صحيحه ، كلهم عن أبي ذرّ .

والبيت المثالي : هو الذي يتعاون أفراده جميعًا ، وتتوزع أعماله بينهم، كل حسب طاقته وإمكاناته وبما يتناسب مع ميوله ورغباته. ولا فرق في هذا بين صغير وكبير، ولنا في الرسول ﷺ أسوة حسنة؛ فقد كان يساعد أهله في شئون المنزل : فيخصف نعله، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويحمل أطفاله..

والبيت المثالي : هو البيئة الطبيعية الوحيدة التي تُرَبى فيها الأطفال تربية جسدية وعقلية ونفسية مستقيمة، وهو المجال الفريد الذي يمكن من خلاله تنمية مشاعر العطف والحب والحنان والمودة والتكافل في نفوسهم .

وإذا كانت المحاضن الجماعية الحكومية بوسائلها وإمكاناتها الكبيرة تستطيع أن ترعى الأطفال من الناحية الجسدية رعاية علمية تامًا ، فهي لا تستطيع أن تفي بحاجاتهم النفسية ، التي لا يمكن إشباعها إلا في الجو الأسري ، الذي يتوافر فيه للطفل أبوان يشعر بأنه يمتلكهما تمامًا، أما في الحضانة فلا يمكن له هذا بأي حال من الأحوال؛ حيث يشترك عدد غير قليل من الأطفال في أم واحدة، وهذا ينشأ عنه ضررٌ مزدوج يلحق بالطفل من جانب وبأبويه من جانب آخر: فأما الطفل فسينشأ عنده نوع من الخلل النفسي، يترتب عليه اضطرابات عاطفية لها أبعد الأثر في تكوين شخصيته المُستقبَلة. وأما الأبوان فستنزع منهما عواطف الأبوة والأمومة، مما يجعل علاقتهما ببعضهما ببعض تقتصر على حد الشهوة والجسد .

وهكذا يجب أن يكون البيت المسلم المثالي حتى ترتاح الأعصاب وتطمئن النفوس ، وتتحقق السعادة.

بحوث ودراسات علمية معاصرة
حول أسباب السعادة الزوجية

قامت باحثة أمريكية بدراسة وجهت فيها إلى حوالي ٣٤٤ شخصًا من الطبقة المثقفة عدة أسئلة عن «**الزواج الموفق**» أو «**الأسرة الناجحة**»، فاستطاعت أن تجمع من خلال إجاباتهم حوالي ٢٢٠٨ شروط رأى المشتركون في الاستخبار ضرورة توافرها في الحياة الزوجية السعيدة !

وقد حاولت هذه الباحثة أن تصنف تلك الشروط في مجموعات بحسب ترتيبها في الأهمية، فتوصلت إلى حصرها في عوامل أربعة :

أولاً : عوامل ترتبط بالسمات الشخصية، والحالات الوجدانية، والعلاقات المتبادلة بين أفراد الأسرة، وتلك هي أهم العوامل.

ثانيًا : عوامل ترتبط بالمركز الاقتصادي للأسرة، وتشمل الدخل الكافي، وحسن تدبير شئون المنزل، ووجود نظام مالي للأسرة .

ثالثًا : عوامل تتصل بالأفكار العامة السائدة في المنزل، بما في ذلك المثل العليا للزوجين، ونظرتهما إلى القيم الأخلاقية والدينية .

رابعًا : عوامل اجتماعية تتصل بصلات الأسرة الخارجية، وطريقتها في تنظيم أوقات فراغها، وأساليبها في التسلية والراحة .. إلخ - ثم عادت هذه الباحثة فوجهت إلى المشتركين الاستخبار التالي : «ما هي التجارب المفيدة والاستعدادات القيمة التي أعانتك على تحقيق أسباب التكيف مع زوجك؟» فتلقت الردود التالية :

أولاً : قد يكون للخبرة في مجالات أخرى أثر هام على الحياة الزوجية ، خصوصًا إذا كان من شأن تلك الخبرة أن تمد صاحبها بسعة الأفق وبعد النظر ورحابة الصدر .

ثانيًا : ليس من شك في أثر التربية التي تلقاها المرء في أثناء الطفولة على كل حياته الزوجية.

ثالثًا : للدراسات السيكولوجية والإلمام بمبادئ علم النفس ومعرفة طبيعة الطفل آثار واضحة على «السعادة في البيت» .

رابعًا : لا بد لتحقيق التكيف من «المحاولة والخطأ» .

خامسًا : من الأهمية بمكان أن يستفيد المرء من تجارب الآخرين .

سادسًا : لا شك في أن للاطلاع أثره على السعادة الزوجية .

وأما العوامل التي قد تحول دون سعادة الأسرة، فقد استطاعت الباحثة المذكورة أن تحصرها فيما يلي :

١ - العامل المالي أو الاقتصادي .

٢ - تدخل حماة الزوج في شئون الأسرة .

٣ - عدم توافر العون اللازم لإدارة شئون البيت ورعاية الأطفال .

٤ - أسرة الزوج . ٥ - حدوث مرض أو عاهة لأحد الزوجين .

وهناك بحث آخر قام به أحد علماء الاجتماع بقصد معرفة معايير التكيف الزوجي أو أسباب السعادة الزوجية. فاستطاع بفضل هذه الدراسة الاجتماعية الدقيقة أن يقدم لنا النصائح التالية :

أولاً : لا بد من «تثبيت» الحب حول شخص الزوج (الزوجة) .

ثانيًا : على الزوجين أن يعملا على تنمية الأساليب الصحيحة في التعامل والتآزر والتوافق، مع الحرص على تجنب أسباب الاحتكاك ومناسبات الخلاف الشخصي .

ثالثًا : من الأهمية بمكان أن ينهض الزوجان بأعمال مشتركة تضمن لهما وحدة القصد وامتزاج الهدف، مع الاهتمام في الوقت نفسه بتكوين ذكريات مشتركة، والعمل على دعم أواصر التماسك والتعاون في كل مناسبة .

رابعًا : لا بد للزوجين من أن يكفل الواحد منهما للآخر أقصى حد ممكن من الإشباع الجنسي والرضا الشخصي .

خامسًا : على الزوجين أن يجتهدا في حل كل مشاكلهما الاقتصادية حلاً مرضيًا .

سادسًا : لا بد من أن يدع كل طرف للطرف الآخر أكبر قسط ممكن من الحرية في التعبير عن نفسه والعمل على تنمية إمكاناته الشخصية، بشرط ألا يكون في هذه الحرية أي تعارض مع الرابطة الزوجية والحياة الأسرية. ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يكون ثمة «توافق زوجي» بمعنى الكلمة إن لم يعترف كل طرف بشخصية الطرف الآخر اعترافًا كاملاً .

وهناك ثلاث دراسات هامة ، قام بها على التعاقب : ترمان في بحث قيم له تحت عنوان «العوامل السيكولوجية في السعادة الزوجية» ظهر سنة ١٩٣٨ م ، وبرجس بالاشتراك مع كترل في بحث دقيق أطلقا عليه «التنبؤ بالنجاح أو الفشل في الزواج» ظهر سنة ١٩٣٩م، وأخيرًا لوك في دراسة ممتازة قام بها سنة ١٩٥١م تحت عنوان «التنبؤ بالتوافق (أو التكيف) في الزواج» وتتميز هذه الدراسات الثلاث بكونها معتمدة على استخبارات سيكولوجية دقيقة، وإحصاءات علمية وافية، مما يزيد من قيمة النتائج التي توصل إليها أصحاب هذه الدراسات في ميدان «علم النفس العائلي» . وهاكم بيانًا موجزًا لنتائج هذه الدراسات.

أجرى الباحث الأول (ترمان) دراسته السيكولوجية على ٧٩٢ أسرة أمريكية من الطبقة المتوسطة في ولاية كاليفورنيا، فاستطاع أن يخلص إلى أن هناك ثلاثة عوامل رئيسية تحدد السعادة الزوجية هي:

أولاً : عامل الشخصية . **ثانيًا** : عامل الإطار الأسري . **ثالثًا** : العامل الجنسي .

والملاحظ فيما يتعلق بالعامل الأول أن الأشخاص الأشقياء في زواجهم هم في العادة الأشخاص العصبيون، أو الأشخاص الذين يتصفون بسرعة الغضب، والميل إلى انتقاد الآخرين، وعدم مراعاة شعور الغير، والتأثر الشديد بالمدح أو الذم، وانعدام الثقة بالنفس، والتسرع في إظهار أمارات الحب أو الكراهية، والميل إلى السيطرة على الجنس الآخر، والتذبذب الشديد من حالة إلى أخرى، وكثرة الانشغال بالأفكار التافهة، وعدم الاهتمام بمسائل الدين، والآداب العامة والمبادئ الأخلاقية المرتبطة بالأمور الجنسية .

ولعل من أهم الصفات التي يتحلى بها الأزواج السعداء (في نظر ترمان) هي من هذه الناحية، القدرة على ضبط النفس ، والميل إلى التعاون، والمزاج المعتدل، وعدم الانسياق إلى اليأس أو فقدان الثقة بالنفس. وأما أهم صفات الزوجات السعيدات فهي روح الصداقة والمودة، والقدرة على ضبط النفس والتحكم في الانفعالات، والميل إلى الحركة والنشاط. وليس أشقى في الحياة الزوجية من المرأة ذات الحساسية الزئبقية التي سرعان ما تتوهم أنها ضحية، والتي تستسلم لليأس والسأم والتراخي المستمر.

وأما فيما يتعلق بالعامل الثاني – ألا وهو عامل الإطار الأسري – فقد وجد ترمان أن أكثر العوامل الملائمة لنجاح الزواج هي سعادة الأبوين، وسعادة الزوج أو الزوجة إبان الطفولة،

وانعدام الصراع بين الطفل وأمه أو أبيه، ووجود نظام عائلي محكم (ولكن ليس صارمًا) في البيت، وتوافر الرابطة القوية بين الأم والأب، وصراحة الأبوين فيما يتعلق بمسائل الجنس، وانعدام النفور أو التقزز من المسائل الجنسية في السنوات السابقة على الزواج.

وأما فيما يتعلق بالعامل الثالث - ألا وهو عامل الصلات الجنسية - فإن ترمان يقرر أنه ليس ثمة علاقة مباشرة بين السعادة الزوجية وبين خوف الزوجة من الحمل، أو مدة الجماع - أو معلومات الزوجة الجنسية قبل الزواج.. إلخ ولكن ثمة علاقة وثيقة بين سعادة الزوجة ودرجة متعتها الجنسية في أول علاقة زوجية، بينما توجد علاقة عكسية بين سعادة الزوج وميل زوجته إلى الحياء البالغ. وأما حينما يكون ثمة تعادل في قوة الحافز الجنسي لدى الزوج والزوجة، وحينما تكون درجة «الإشباع الجنسي» عند الزوجة ذات طابع مرض، فهنالك تكون السعادة الزوجية قد استكملت معظم أسبابها. هذا مع العلم بأن ثلث الزوجات اللائي اشتركن في استخبار ترمان قد اعترفن أنهن لم يعرفن الإشباع الجنسي الحقيقي ، أو لم يستطعن بلوغه إلا نادرًا.

أما البحث الثاني الذي قام به العالمان الأمريكيان برجس وكترل، فقد كان الغرض منه التوصل إلى تحديد عناصر السلوك المؤدية إلى النجاح أو الفشل في الزواج على ضوء مجموعة من الاستخبارات الدقيقة التي أجريت على نحو ٥٢٦ زوجًا وزوجة من الطبقة المتوسطة في أمريكا. وقد لخص الباحثان النتائج التي توصلا إليها في الحقائق الست الآتية :

أولاً : لا زالت الزوجة الأمريكية (على العكس من الرأي الشائع) مضطرة إلى تحقيق القسط الأكبر من التكيف، وذلك لسيادة «النمط الأبوي» في سيطرة الذكر على الأسرة.

ثانيًا : إن العلاقات الوجدانية التي تربط الطفل بوالديه هي التي تحدد بشكل واضح مستقبل حياته الغرامية، وبالتالي فإن سعادة الوالدين في الحياة الزوجية مرتبطة كل الارتباط بسعادة الأبناء من بعد. هذا إلى أن تعلق الطفل بأبويه، وعلى الخصوص تعلق الولد بأمه، وتعلق البنت بأبيها، مع انعدام كل مظاهر الصراع مع الوالدين، مما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بدرجة تكيف الفرد في حياته الزوجية المستقبلة.

ثالثًا : لا شك في أن الروح الاجتماعية الموجودة لدى الفرد، على نحو ما تتمثل في مشاركته لحياة الجماعة ونهوضه ببعض أوجه النشاط الاجتماعي، هي من الأهمية بمكان في

تحديد مدى نجاح الأسرة أو فشلها. ولهذا فإن الشخص الاجتماعي الذي يتمتع بالكثير من الصلات - إذا تساوت باقي الظروف- هو في العادة أقدر على النجاح في حياته الزوجية من الشخص المنعزل الذي يعيش على هامش المجتمع دون الاهتمام بتكوين أية روابط اجتماعية.

رابعًا : ليس للعامل الاقتصادي في حد ذاته أثر كبير في نجاح الأسرة أو فشلها، وإنما لا بد من أن تضاف إلى هذا العامل عوامل أخرى مساعدة حتى يصبح ذا أثر فعال في حياة الأسرة.

خامسًا : يذهب معظم المشتركين في هذا الاستخبار إلى أن تكيفهم الجنسي لم يتولد عن عامل بيولوجي محض، بقدر ما كان نتيجة لعوامل سيكولوجية واتجاهات ثقافية سابقة نحو الجنس .

سادسًا : يقرر الباحثان بناء على هذا الاستخبار أن في الوسع التنبؤ بنجاح الزواج أو فشله مقدمًا ، وأنه لا بد من العمل على التوسع في هذا المضمار بالاستناد إلى الإحصائيات العلمية ودراسة الحالات المختلفة .

وقد سار لوك على خطي هذين الباحثين ، فحاول أن يتوصل إلى مجموعة من النتائج العامة التي تلخص كل قوانين التكيف الزوجي ، وهي بإيجاز كما يلي :

١ - السعادة في الزواج مقترنة بالتكيف ، وليس الطلاق إلا بمثابة تعبير عن «انعدام التكيف» .

٢ - ليس «انفصال» الزوج عن الزوجة سوى تجمع بطيء لمجموعة من عمليات الصراع المتعاقبة أو المشاحنة المستمرة .

٣ - يتوقف «التكيف» على نمو أواصر المحبة والتعاطف، وتزايد الاهتمامات المشتركة، وتعدد مظاهر النشاط المزدوج، واتخاذ مواقف متشابهة، والإيمان بقيم مشتركة ، واحترام كل فرد لشخصية الآخر.

٤ - يستلزم «التكيف» في الزواج بالضرورة ضربًا من التكيف مع أسرة الطرف الآخر .

٥ - لا بد للتكيف من أن يشمل الصلات الجنسية ، وهذه لا بد أن تقوم على التعاطف والإشباع المتبادل.

٦ - يقتضي « التكيف» من كلا الطرفين أن يتقبل عن طيب خاطر مسئوليات الزواج وتبعات الحياة «العائلية» .

٧ – يتوقف التكيف على قدرة كل من الطرفين على التبادل الوجداني (أي تلقي عطف الآخر، والاستجابة له) .

٨ – يرتبط التكيف ارتباطًا مباشرًا بالروح الاجتماعية العامة وعدد الأصدقاء المشتركين .

ويؤكد الدكتور زكريا إبراهيم (الحاصل على دكتوراه الدولة في الآداب من السربون) ، على أنه لا بد من أن تنطوي الحياة الزوجية على المشاركة والتبادل والشعور بالمعية.. ويقول : ألا يحيا الزوجان معًا ويتقاسمان فراشًا واحدًا ، ويشعر كل منهما بأنه للآخر! ماذا عسى أن يكون «الزواج» إن لم يكن في صميمه تلك «الرابطة الحية» التي تجمع بين الرجل والمرأة ، فتمزج في وحدة عجيبة كل أفكارهما ومشاعرهما وغاياتهما وشتى مظاهر حياتهما؟. وربما كان أقوى رمز على هذا «الاتحاد» اضطجاع الزوج والزوجة في فراش واحد: فإن الفراش المشترك هو أعمق دلالة وأوضح صورة لهذا «الامتزاج» الكلي الذي تتطلبه الحياة الزوجية. وهكذا يرقد الزوج إلى جوار زوجته، فتطويهما معًا في سكون الليل – وليس شعور الرقاد -- وحدة عميقة تنفذ بهما إلى أبعد أغوار الحياة المليئة الخصبة! ومهما يكن من أمر الرابطة التي تجمع بين الزوجين في حياتهما اليومية، فإن في وسعنا أن نقول : إن الزوجين اللذين لا يتقاسمان فراشًا واحدًا هما في الحقيقة ليسا بزوجين. والحق أن الحياة الزوجية الصحيحة إنما تقوم على شعور كل من الطرفين بأنه «مع» الآخر، وأن هذه «المعية» هي في حد ذاتها كافية لتبرير كل وجودهما! فالمشاركة والتجارب والشعور بالمعية أمور لا بد من توافرها في الحياة الزوجية السعيدة[1] .



(١) د. زكريا إبراهيم : «الزواج والاستقرار النفسي» . (بتصرف يسير) .

الاختيار في الزواج

اختيار شريك الحياة أكثر الاختيارات أهمية على الإطلاق، ومن استطاع أن يختار شريكه اختيارًا سليمًا استطاع أن يحقق خطوة هامة في سبيل تحقيق سعادته المنشودة .

لذا كان من المنطقي أن يضع الإسلام الحريص على سعادة الإنسان - منهجًا يتم وفقه اختيار شريك الحياة. وقد أثبتت التجارب والخبرات أنه على قدر قرب الاختيار أو بعده عن هذا المنهج يكن مقدار النجاح أو الفشل في الحياة الزوجية .

وأسس هذا المنهج الاختياري عديدة ومتشعبة، وليس هذا موضع تفصيلها، ولكن أهم معالم هذا المنهج على وجه الإجمال تتمثل في ضرورة تعرف كل من الطرفين على الآخر، وهذا التعرف لا يقتصر على معرفة التكوين الخلقي فحسب، بل يتعدى إلى محاولة تعرف التكوين النفسي والروحي والفكري، حتى يتمكن الطرفان من معرفة ما إذا كان كل منهما يتوافق مع الآخر أم لا؟

فأهم معيار لتحقيق الانسجام والاستقرار ، هو التوافق في المبادئ والقيم، والاتجاهات والأفكار، والطبيعة والمزاج، والرغبات والميول، وفي النظر إلى الحياة بوجهٍ عام .

فمن مصلحة كلا الطرفين أن يرتبط بمن هو على شاكلته ، لأن الحياة الزوجية تنال نصيبها من السعادة والهناء على قدر ما بين الزوجين من تكافؤ وتوافق واتساق .

قال تعالى : ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ (٢٦)﴾ [النور : ٢٦] . وقال ﷺ : «**الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» [رواه البخاري].

الحذر من الإفراط أو التفريط في الغيرة :

لا بد أن تقوم العلاقة بين الزوجين على أساس من الثقة المتبادلة بين الطرفين، حتى تسير حياتهما معًا في هدوء وانسجام، فلا يترك أحدهما لظنونه العنان، ولا يتجسس على الآخر،

ولا يبالغ في الغيرة، لأن كل هذا مما يؤدي إلى انفصام عرى المحبة، وينكد العيشة ويعكر صفوها. وإن كان ولا بد أن يوجد نوع من الغيرة، فهي الغيرة المعتدلة التي تزيد من المحبة والود وتشعر الطرف الآخر بأنه موضع اهتمام وعناية .

يقول الرسول ﷺ : **«إن من الغيرة ما يحبه الله، ومنها ما يبغضه الله. ومن الخيلاء ما يحبه الله، ومنها ما يبغضه الله: فأما الغيرة التي يحبها الله، فالغيرة في الريبة. والغيرة التي يبغضها الله، فالغيرة في غير ريبة.. والاختيال الذي يحبه الله، اختيال الرجل بنفسه عند القتال، وعند الصدمة.. والاختيال الذي يبغضه الله، الاختيال في الباطل»** . [رواه أبو داود والنسائي وابن حبّان] .

وقال : **«ثلاثة لا يدخلون الجنة أبدًا : الديوث ، والرجلة من النساء ومدمن الخمر»** . قالوا : يا رسول الله : أمّا مدمن الخمر فقد عرفناه، فما الديوث؟ قال : **«الذي لا يبالي من دخل على أهله»**. قلنا: فما الرجلة من النساء؟ قال : **«التي تشبهُ بالرجال»** . [رواه الطبراني . وقال المنذري: رواته ليس فيهم مجروح].

ومن أمثال الغيرة المشروعة ما رُوي عن سعد بن معاذ رضي الله عنه أنه رأى امرأته وقد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها، فاستنكر منها ذلك الموقف، لما قد يكون في ذلك من احتمال إثارة الغلام جنسيًا حين يتخيل الموضع الذي أكلته من التفاحة، ثم يتخيل فمها، ثم.. ثم.. فغيرة سعد هنا ضرورية ومطلوبة . ومما يجمل أن يتحلى به الزوجان في حالة حدوث الغيرة من أحدهما .. صفة الحلم ، حيث ينظر المُغار عليه إلى الغيران نظرة ود مشوبة بالصفح والغفران ، لأنه يعلم أن هذه الغيرة بدافع الحب والخوف على ضياع المحبوب. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

جاء عن عائشة: **«أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه أن يكون أتى بعض نسائه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: أغرت؟ فقلت: وهل مثلي لا يغار على مثلك؟»** [أخرجه مسلم والنسائي] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : أهدى بعض نساء النبي ﷺ له قصعة فيها ثريد، وهو في بيت بعض نسائه، فضربت عائشة يد الخادم فانكسرت القصعة، فجعل النبي يأخذ الثريد ويرده في القصعة ويقول: **كلوا! غارت أمكم!** وفي رواية أخرى أخرجها أبو داود والنسائي

أن السيدة عائشة ندمت على ذلك، وقالت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟ قال : «إناء مثل إناء ، وطعام مثل طعام». بمثل هذا الحلم ينبغي أن يتحلى الأزواج .

وجوب إعفاف الزوجة

من المعلوم في العُرْف والعلم أن إحساس المرأة بالجنس أشد وأعمق وأشمل من الرجل، ولذا فهي في حاجة مستمرة للإشباع .

انطلاقًا من هذه الحقيقة فرض الإسلام على الزوج أن يجامع زوجته بالقدر الذي يحفظ عفة المرأة ويصونها. قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٢٢]. قال الإمام الغزالي رحمه الله: وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة، فهو أعدل؛ لأن عدد النساء أربعة ، فجاز التأخير إلى هذا الحد.. نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص حسب حاجتها إلى التحصين؛ فإن تحصينها واجب عليه .

وعن محمد بن معن الغفاري قال : «أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالت : يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل، فقال لها: نعم الزوج زوجك. فجعلت تكرر هذا القول ويكرر عليها الجواب.. فقال له كعب الأزدي: يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه. فقال عمر: كما فهمت كلامها فاقض بينهما» .

فقال كعب : عليَّ بزوجها . فأتي به .

فقال له : إن امرأتك هذه تشكوك .

قال : أفي طعام أو شراب؟ .. قال : لا . فقالت المرأة :

يا أيها القاضي الحكيم رشدُه ... ألهى خليلي عن فراشه مسجده
زهّده في مضجعي تعبده ... فاقض القضا، كعب ولا تردده
نهاره وليله ما يرقده ... فلست في أمر النساء أحمده

فقال زوجها :

زهدني في النساء وفي الحجَلْ ... أني امرؤ أذهلني ما نزل
في سورة النحل وفي السبع الطُول ... وفي كتاب الله تخويف جَلَلْ

فقال كعب :

إن لـهـا عـلـيـك حـقًـا يـا رجـل — نـصـيـبـهـا فـي أربـع لـمـن عـقـل
فـــــأعـــــطـــــه ذاك — ودع عـــــنـــــك الـــعـــلـــل

ثم قال : إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك. فقال عمر: والله ما أدري من أي أمريك أعجب؟! أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما؟.. اذهب فقد وليتك قضاء البصرة .

النهي عن غياب الزوج عن زوجته

يجب أن لا يغيب الزوج على زوجته مدة طويلة ، لما في ذلك من حرج شديد لها. ولعل الرواية التاريخية التالية توضح لنا ذلك :

بينما عمر بن الخطاب يحرس المدينة، فمر بامرأة في بيتها وهي تقول :

تـطـاول هـذا الـلـيـل واسـود جـانـبـه — وطـال عـلـيّ أن لا خـلـيـل ألاعـبـه
والـلـه لـولا خـشـيـة الـلـه وحـده — لـحُـرّك مـن هـذا الـسـريـر جـوانـبـه
ولـكـن ربـي والـحـيـاء يـكـفـنـي — وأكـرم بـعـلـي أن تـوطـأ مـراكـبـه

فسأل عنها عمر ، فقيل له : هذه فلانة، زوجها غائب في سبيل الله. فأرسل إليها تكون معه، وبعث إلى زوجها، فأقفله (أرجعه). ثم دخل على حفصة، فقال : يا بنية ، كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت : سبحان الله مثلك يسأل مثلي عن هذا؟ فقال : لولا أني أريد النظر للمسلمين ما سألتك . فقالت : خمسة أشهر .. ستة أشهر. فوقت للناس في مغازيهم ستة أشهر.. يسيرون شهرًا، ويقيمون أربعة أشهر ، ويسيرون راجعين شهرًا . روى هذه القصة أبو حفص بإسناده عن زيد بن أسلم كما رواها – مع اختلاف يسير في ألفاظ الشعر وأبياته – الإمام مالك بن أنس في الموطأ عن عبد الله بن دينار .

التحذير من عدم استجابة الزوجة لرغبة زوجها الجنسية

إن تحذير الإسلام للمرأة من عدم الاستجابة لرغبة زوجها الجنسية يرجع إلى ما قد يترتب على ذلك من عواقب وخيمة تعرض البناء الأسري لمعاول الهدم والتصدع ؛ لأنه قد يخيل

للزوج أن زوجته لا تحبه، أو يدفعه ذلك إلى أن يرتمي في أحضان امرأة أخرى بطريقة غير مشروعة .

لهذا وغيره قال رسول الله ﷺ : «**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها**» [أخرجه الشيخان] . قال أيضًا : «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فلم تأته ، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح**» . [أخرجه الشيخان وغيرهما] .

وقال : «**إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته، وإن كانت على التَّنور**» [أخرجه الترمذي والنسائي . والتنور : الذي يخبز فيه] .

النهي عن صوم المرأة النفل إلا بإذن زوجها

لقد بلغ من اهتمام الإسلام بتنظيم العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة. أنه قد حرم على المرأة إتيان عبادة تحول بينها وبين رغبة زوجها! فقال رسول الله ﷺ : «**لا تصومنّ امرأة إلا بإذن زوجها**»[1]، وذلك لأن الزوج قد يشتهيها أثناء النهار. فقد قال ﷺ : «**إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله؛ فإن ذلك يرد ما في نفسه**»[2] .

ويرجع تقديم الإسلام لتلبية رغبة الزوج أو الزوجة على عبادة النفل؛ إلى أنه يعتبر لقاء الزوجين عبادة أفضل وأهم لأنها عبادة متعدية.. أما عبادة النفل فهي عبادة قاصرة[3]. قال رسول الله ﷺ : «**ولك في جماع زوجتك أجر**» . قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون فيها أجر؟.. قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ .. فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر**» . [رواه مسلم] .

---

(١) رواه عن أبي سعيد : أحمد في مسنده ، وأبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه . حديث صحيح.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود ، كلهم عن جابر . حديث صحيح .

(٣) في مقررات علماء الإسلام : أن العبادة المتعدية أفضل من العبادة القاصرة، والعبادة المتعدية هي «العمل» الذي يفعله الإنسان على سبيل العبادة ليتعدى بنفعه إلى غيره من الناس، والعبادة القاصرة هي التي يكون نفعها مقصورًا على صاحبها وفاعلها .

إذا جامع أحدكم زوجته فليصدقها

من الأزواج من يفارق زوجته فور إشباعه هو ، ولا ينتظر حتى إشباع زوجته ، وهذا خطأ ليس بالهين؛ لأنها تكون في حالة نفسية وجسدية بالغة السوء. وتكرار مثل هذا التصرف من شأنه أن يؤدي إلى كراهيتها له . لذا فقد قال ﷺ : «**إذا جامع أحدكم زوجته فليصدقها، فإن قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فليصبر حتى تقضي حاجتها**»[1] .

معاونة الزوجة لزوجها في حالة فقره وتصدقها عليه إذا كانت غنية

من سمات الزوجة الوفية أن تظل تقاسم زوجها الحياة في ضرائها كما قاسمته إياها في سرائها، وأن تساعده بمالها إن كانت لديها القدرة على الإعانة، أو تشاركه في أعماله التي يقوم بها . وقد مر معنا سابقًا ما روي في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنها قالت : تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير فرسه وناضحه (بعيره الذي يحمل له الماء)، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحه وأعلفه، وأستقي الماء وأخرز غربه (دلوه) ، وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلي أبي بجارية، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني .

ويحدثنا التاريخ أن أعرابيًا من بني عُذْرَة شكا إلى معاوية بن أبي سفيان عامله مروان بن الحكم في المدينة، لرغبته في التفريق بينه وبين زوجته - على رغمها - لفقر نزل به بعد عز ، ولرغبته في أن يتزوج منها لمكانها من الجمال، فلما حضرت أمام معاوية قال لزوجها مازحًا : نخيرها بيننا . فقال الزوج في ثقة من زوجته : ذلك إليك يا أمير المؤمنين .

فتحوَّل معاوية نحوها وقال لها : يا سُعدى، أينا أحبُّ إليك : أمير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره، أَمْ مروان بن الحكم في غضبه واعتدائه، أم هذا الأعرابي في جوعه وأطماره؟ (ثيابه البالية) فأشارت الجارية إلى ابن عمها الأعرابي وأنشدت تقول :

هذا ، وإن كان في جوع وأطمار ... أعزُّ عندي من أهلي ومن جاري

---

(١) لعبد الرزاق في الجامع ولأبي يعلى في مسنده عن أنس .

وصاحب التّاج أو مروان عامله وكلّ ذي درهم منهم ودينار

ثم قالت : لست - والله يا أمير المؤمنين - لحدثَان الدهر بخاذلته، ولقد كانت لي معه عيشة راضية، وأنا أحق من يصبر معه على الضراء والسراء وعلى الشدة والرخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه .

فأُعجب معاوية بعقلها وكمالها ومروءتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وألحقها بصدقات بيت المسلمين.

ومما جاء في الحث على مساعدة الزوجة لزوجها ماليًا إن كان فقيرًا ، ما روته زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، قالت: قال رسول الله ﷺ : «**تصدقن يا معشر النساء ولو من حُلِيكُن**» .

قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود ، فقلت : إنكَ رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة ، فَأْتِه فاسأله، فإن كان ذلك يجزي عني، وإلا صرفتُها إلى غيركم. فقالَ عبد الله: ائته أنت . فانطلقت ، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ ، حاجتُها حاجتي. وكان رسول الله قد أُلقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال رضي الله عنه، فقلنا له: ائت رسول الله فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك، أتجزي الصدقة عنهما على أزواجهما، وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره مَنْ نحن .

قالت : فدخل بلال على رسول الله ﷺ ، فسأله ، فقال رسول الله ﷺ : **مَنْ هما؟**

فقال : امرأة من الأنصار وزينب .

فقال رسول الله : **أي الزيانب** ؟ قال : امرأة عبد الله بن مسعود .

فقال رسول الله ﷺ : «**لهما أجران : أجر القرابة ، وأجر الصدقة**» . [رواه البخاري ومسلم].

الحذر من البخل

البخل مسألة نسبية .. بمعنى أنه يختلف من شخص لآخر ، أحيانًا يكون التعامل مع المال بخلاً بالنسبة لشخص ، وأحيانًا يكون تبذيرًا بالنسبة لشخص آخر .

وتبعًا لذلك يكون التعامل مع المال في الإسلام وفقًا لقاعدة : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ⁽٧⁾﴾ [الطلاق :٧].

ونظرًا لخطورة بخل الرجل على البناء الأسري ، فقد حذر الإسلام منه تحذيرًا شديدًا ، قال رسول الله ﷺ : **«كفى المرء إثمًا أن يضيع من يقوت»** . [أخرجه مسلم] .

ويقول ﷺ : **«إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»** [أخرجه ابن حبان في صحيحه] .

ويجب على الزوج ألا يؤثر نفسه بمأكل أو ملبس دون زوجته ؛ لأن هذا شأنه زرع الكره في الصدور، وتقطيع أواصر الود والمحبة .

وفي مقابل تحذير الإسلام وتهديده من يبخل على أهله ، قد رغب ترغيبًا جميلاً في النفقة على الزوجة ، يقول رسول الله ﷺ **«وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فيّ امرأتك»** [أخرجه البخاري] . ويقول أيضًا فيما رواه أحمد : **«ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة،وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة»** [حديث صحيح]. أما إذا كان لا مفر من بخل الزوج فللزوجة أن تأخذ من ورائه ما لا بد منه مما هو ضروري؛ لما جاء في الحديث الذي رواه البخاري وغيره من أن هند امرأة أبي سفيان قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم !فقال : **«خذي ما يكفيك وولده بالمعروف»** .

الحذر من السخط لولادة البنات

البنات هبة من الله تعالى .. هبة مقدمة على هبة الذكور ، قال تعالى : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ⁽٤٩⁾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ⁽٥٠⁾﴾[الشورى : ٤٩-٥٠].

والإنسان الحكيم هو الذي يتقبل ما وهبه الله من البنات أو الذكور بقبول حسن، فلا يبالغ في الفرح بالولد، ولا يكون «باردًا» سلبيًا حين يرزقه الله ببنت. فهل يعلم أحد أين سيكون الخير أو الشر؟ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⁽٢١٦⁾﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وقد كتب أحد الأدباء يهنئ صديقًا له بمولودة : «أهلاً بعقيلة النساء ، وأم الدنيا، وجالبة

الأصهار والأولاد الأطهار، والمبشرة بإخوة يتسابقون ونجباء يتلاحقون» . ويذكر التاريخ أن أميرًا عربيًا تزوج من امرأة وهو يطمع أن تلد له غلامًا ، فولدت له بنتًا ، فهجر منزلها وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد عام وإذا هي تُرقص بنتها وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا — يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا — تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا!!

فغدا الرجل حتى دخل البيت، فقبل رأسي امرأته وابنته!!

الحمو الموت!

يتساهل كثير من الأزواج مع أقربائهم أو أصدقائهم، فيسمحون لهم بالدخول - ثقة فيهم - على زوجاتهم ومجالستهن، وهذا - في الحقيقة - سوء تصرف منهم ؛ لأن أكثر الفتن التي تؤدي إلى زعزعة أركان الأسرة وتصديع بنيانها، إنما تأتي من قبل هؤلاء بسبب التساهل معهم. والأمثلة على ذلك في الحياة الواقعية أكثر من أن تُحصى . لهذا وغيره ، قال رسول الله ﷺ : **«إياكم والدخول على النساء»** ، فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت الحمو؟ قال : **«الحمو الموت»** . [أخرجه البخاري ومسلم] . والحمو هو : أخو الزوج أو قريبه ، ولقد شبهه الرسول بالموت؛ لأن دخوله كالموت في كونه يسبب الهلاك .

الحذر الحذر .. أيتها الزوجة

هناك من الزوجات من تصف لزوجها النسوة الأخريات اللاتي تعرفهن، وهي لا تعلم أن ذلك قد يؤدي إلى تعلق زوجها بالمرأة التي تصفها، وقد يعمل على محاولة الاتصال بها سواء كان ذلك بطريقة مشروعة أم لا . ونظرًا لخطورة ذلك على الحياة الزوجية ، فقد قال الرسول ﷺ : **«لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»** . [أخرجه البخاري وغيره] .

ويلحق بما سبق : النهي عن إفشاء السر من الزوجين ، قال رسول الله ﷺ : **«إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر أحدهما سر صاحبه»** . [رواه مسلم وأبو داود وغيرهما] .

تحاشي المنغصات

هناك كثير من الأفعال والتصرفات من المرأة تسبب ضيقًا وتعاسة للزوج، فيجب عليها اتقاؤها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، وأنا أعرض هنا بعضًا منها :

ما تفعله كثير من الزوجات عند رجوع أزواجهن من العمل .. فما أن يجلس الزوج مستقرًا حتى تذكره بما يحتاجه البيت من مطالب، وما يجب عليهم تسديده من الديون، وأجر الشقة، ومصاريف الأولاد..، والرجل لا يرفض الحديث في مثل هذه الأمور، ولكن يجب أن تتخير زوجته الوقت المناسب. أما وقت ما بعد الرجوع من العمل أو الخارج فلا ؛ لأنه يكون مرهقًا ينشد الراحة والسكون.

وهناك من النساء مَنْ تُصر على أن ترتدي أجمل الثياب وتتحلى بأنواع الحُلى حين تخرج من المنزل، أما في البيت فلا جمال ولا زينة ولا.. وشبيهة بها مَنْ تُصر على عدم إزالة شعرها، أو من ترفض إزالة بعض الروائح من أماكن معينة.

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فعلّمها النبي كيف تغتسل، ثمّ قال لها : **خذي فرصة ممسكة** (أي قطعة القطن بها أثر الطيب) **فتطهّري بها** ، قالت : كيف أتطهر بها؟ قال : **تطهري بها**، قالت : كيف يا رسول الله أتطهر بها؟ فقال لها : **سبحان الله، تطهري بها!**

قالت السيدة عائشة : فاجتذبتها من يدها ، فقلت : ضعيها مكان كذا وكذا ، وتتبعي بها أثر الدم، وصرحت لها بالمكان الذي تضعها فيه[1] .

فهذا توجيه لكل امرأة أن تزيل آثار رائحة دم الحيض بهذه الوسيلة التي تجعل هذا الموضع طيب الرائحة، وفيه إلماحة إلى تطييب المواضع المختلفة بالروائح الطيبة؛ لما لها من أثر جميل في نفس الزوج. ذكر المناوي في «فيض القدير» أن أحدهم قال : تزين المرأة وتطيبها لزوجها من أقوى أسباب المحبة والألفة بينهما وعدم الكراهة والنفرة، لأن العين ومثلها الأنف رائد القلب، فإذا استحسنت منظرًا أوصلته إلى القلب ، فحصلت المحبة . وإذا نظرت منظرًا بشعًا أو ما لا

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم .

يعجبها من زي أو لباس تلقيه إلى القلب، فتحصل الكراهية والنفرة. ولهذا كان من وصايا نساء العرب لبعضهن : إياك أن تقع عين زوجك على شيء يستقبحه أو يشم منك ما يستقبحه . وبهذه المناسبة ينصح البعض بتعديد أنواع العطر وعدم الاقتصار على نوع واحد ، حتى لا يمل ويصبح عادة ، كما ينصحون باختيار ما يرغب فيه الطرف الآخر من أنواع العطور .

وهناك من النساء من تتصف بالبرود والسلبية ، فإذا ما أراد زوجها مجامعتها وهو في حالة شوق ولهفة.. لا تتجاوب معه أو تبادله المداعبة، وهذه زوجة بالقطع تعمل على تقطيع أواصر المحبة والوفاق بينها وبين زوجها. ونظرًا لذلك، وحرصًا من الإسلام على انسجام الحياة الزوجية .

طلب الرسول من الزوجة أن تكون إيجابية متجاوبة .. ففي الحديث الذي رواه مسلم قال النبي لجابر: «**فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك** – أو قال : **تضاحكها وتضاحكك**» وفي أخرى قال : «**تُداعبها وتداعبك**» .

وجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء بيني وبينه واحد، تختلف أيدينا فيه فيبادرني حتى أقول: دعْ لي دعْ لي، وهما جنبان» [أخرجه الشيخان].

وهناك من الأزواج مَنْ يأتي زوجته دفعة واحدة ، فلا يداعب ولا يلاطف ولا يتخذُ أي مقدمات .. ومثل هـذا الزوج ينصحه الله تعالى قائلاً : ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة : ٢٢٣]. وينصحه الرسول قائلاً : «**لا يقع أحدكم على زوجته كما يقع البعير - الحمار - ولكن ليلاطفها ويداعبها**» .

انتبه .. أيها الزوج

يحدث للمرأة أثناء فترة الحيض كثير من التغيرات الجسمية والنفسية ، مما يكون له أبلغ الأثر في تصرفاتها وسلوكها، وقد يصدر منها بعض الأفعال وردود الأفعال التي لا ترضى عنها حين تتطهر من حيضها .

وعلى الزوج أن ينتبه لهذا الأمر ويضعه في حسبانه، فيعامل زوجته برفق ولين في هذه

الفترة أكثر من أي فترة أخرى ، ويتحمل بعض تصرفاتها التي يأباها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، حتى تمر هذه الفترة الشهرية في سلام ، وهدوء كاملين .

وهاكم بعض هذه التغيرات التي تطرأ على المرأة في مدة حيضها ، والتي توصل إليها علماء الأحياء والتشريح.

١ - تقل في جسمها قوة إمساك الحرارة ، فيزداد خروج الحرارة منه ، وتنخفض درجتها فيه .

٢ - يبطؤ النبض ، وينقص ضغط الدم ويقل عدد خلاياه .

٣ - وتصاب الغدد الصماء واللوزتان والغدة اللمفاوية أيضًا بالتغير .

٤ - ينتقص الاستقلاب الهيوليني .

٥ - ويقل إخراج أملاح الفوسفات والكلوريد من الجسم ، وينحط الاستقلاب الغازي .

٦ - ويختل الهضم ، ويقل التحام الشحم والأجزاء الهيولية في المأكولات مع أجزاء الجسم .

٧ - وتضعف قوة التنفس وتصاب آلات النطق بتغيرات خاصة .

٨ - ويبلد الحس وتتكاسل الأعضاء .

٩ - وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الأفكار .

وكل هذه التغيرات تدني المرأة الصحيحة إلى حالة المرض إدناءً يستحيل معه التمييز بين صحتها ومرضها. ففي مائة من النساء الحوائض لا تحيض إلا ثلاثة وعشرون بلا وجع أو ألم .

وبحث الباحثون ذات مرة من أحوال (١٠٣٠) امرأة عفو الانتخاب، فوجدوا أن ٧٤% منهن كن يقاسين الوجع وغيره من صنوف الأذى أيام حيضهن .

ويكتب الطبيب (إميل نورك) الذي هو محقق كبير في هذا الفرع من العلم يقول : «إن ما يعهد من الحوائض عامة من الأعراض هي : الصداع، والتعب، والخلج[1] ، وضعف الأعصاب، وتخلف المزاج، واضطراب المثانة، وسوء الهضم والإمساك أحيانًا، والغثيان والتهوع في بعض الحالات. وهناك نساء لا يستهان بعددهنّ يحسسن في صدورهن وجعًا

(١) الخلج : أن يشتكي المرء عظامه من طول تعب أو مشي .

خفيفًا يشتد أحيانًا فيشعرن له بضربات عنيفة، وفي البعض تتورم الغدة الدرقية في هذه الأيام. مما يسبب فيهن البحة، وكثيرًا ما يصبن بفتور الهضم وجهد التنفس»[1] .

ويتحدث الدكتور (فريدريك كهن) عن آلام الحيض فيقول :

«يشعر بعض النساء بدنو الحيض من بعض الدلائل الجسدية والنفسية. ومنها الآلام الواخزة في البطن، والإعياء، وثقل ما فوق العينين، والإسهال والانحطاط إذا تملكهن مغص أو قيء أو دوار أو إغماء أو توعك أو هذيان. وفي أحيان أخرى قد ينشأ عن أسباب جسدية، فعند الفتيات البالغات تنقبض وترتجف الألياف العضلية المتصلبة في أرحامهن والتي لم تنمُ بعد، فتسبب لهنّ آلامًا شديدة. كما أن انقلاب الرحم هو قابل للتأثر بآلام الحيض..»[2] .

ولقد نظر المنهج الإسلامي الحكيم بعين الاعتبار لهذه التغيرات التي تعتري المرأة في أثناء فترة الحيض، فحظر على الرجل طلاق زوجته في أثنائها ؛ لأنه قد يكون ذلك نتيجة انفعال وقتي تحت تأثير هذه الفترة المعنية. إذ يروي أن ابن عمر رضي الله عنه طلق امرأته وهي حائض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : **«يابن عمر، ما هكذا أمرك الله ، قد أخطأت السنة، السنة أن تستقبل الطهر»** . فعلى كل زوج أن ينتبه لهذا ، ويعامل زوجته معاملة تتناسب مع الفترة التي تمر بها حتى تنقضي على خير.

كيف تعامل زوجة لا تحبها ؟
وكيف تعاملين زوجًا لا تحبينه ؟

قال تعالى : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة : ٢١٦] .

ويقول : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء : ١٩] .

ويقول الرسول ﷺ : **«لا يفرك – لا يبغض – مؤمن مؤمنة ! إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»**. [أخرجه مسلم وغيره] .

---

(١) انظر ، الأستاذ المودودي ، الحجاب ، ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(٢) فريدريك كهن : حياتنا الجنسية ، ص ٦٢ .

جعل الله العشرة بالمعروف فريضة على الرجال - حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة - ونسم في هذه الحالة نسمة الرجاء في غيب الله وفي علم الله ؛ كي لا يطاوع المرء انفعاله الأول، فيبت وشيجة الزوجية العزيزة. فما يدريه أن هنالك خيرًا فيما يكره، هو لا يدريه خيرًا مخبوءاً كامنًا، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه .

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ .. وهذه اللمسة الأخيرة في الآية، تعلق النفس بالله ، وتهدئ من فورة الغضب، وتفثأ من حدة الكره، حتى يعاود الإنسان نفسه في هدوء؛ وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الرياح. فهي مربوطة العرى بالعروة الوثقى.. العروة الدائمة.. العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربه ، وهي أوثق العرى وأبقاها .

والإسلام الذي ينظر إلى البيت بوصفه سكنًا وأمنًا وسلامًا ، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنسًا ، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق، كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب.. هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج : ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ .. كي يستأني بعقدة الزوجية ، فلا تفصم لأول خاطر، وكي يستمسك بعقدة الزوجة ، فلا تنفك لأول نزوة ، وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها، فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة ، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك .

وما أعظم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل أراد أن يطلق زوجه؛ لأنه لا يحبها : «ويحك ! ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟» .

وما أتفه الكلام الرخيص الذي ينعق به المتحذلقون باسم «الحب» وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة، ويبيحون باسمه - انفصال الزوجين وتحطيم المؤسسة الزوجية - بل خيانة الزوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟! وخيانة الزوج لزوجته ! أليس أنه لا يحبها؟!

وما يهجس في هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة؛ نزوة الميل الحيواني المسعور. ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن في الحياة من المروءة والنبل والتجمل والاحتمال، ما هو أكبر وأعظم من هذا الذي يتشدقون به من تصور هابط هزيل.. ومن المؤكد طبعًا أنه لا يخطر لهم خاطر.. الله.. فهم بعيدون عنه في جاهليتهم المزوّقة! فما

تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ .

إن العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النفوس ، وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ![1] .

قد رُوي أن رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه يشكو خُلق زوجته، فوقف على بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه، وعمر ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل راجعًا، وقال: إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين، فكيف حالي؟ وخرج عمر فرآه موليًا عن بابه فناداه وقال : ما حاجتك أيها الرجل؟ فقال : يا أمير المؤمنين جئت أشكو إليك سوء خُلق امرأتي واستطالتها عليّ. فسمعت زوجتك كذلك فرجعت وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته، فكيف حالي؟ فقال عمر: يا أخي.. إني أحتملها لحقوق لها عليّ: إنها لطبَّاخة لطعامي، خبَّازة لخبزي، غَسَّالة لثيابي، مرضعة لولدي، وليس ذلك كله بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام . فأنا أحتملها لذلك . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين .. وكذلك زوجتي. قال عمر: فاحتملها يا أخي ، فإنما هي مدة يسيرة[2] . وقال رسول الله ﷺ : «**استوصوا بالنساء خيرًا ، فإنهن خُلِقْن من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج.. فاستوصوا بالنساء خيرًا**» . [أخرجه البخاري في صحيحه] .

وهذا الحديث ينبه الأزواج إلى وجوب التجاوز عن بعض الأمور؛ فإنه ليس هناك ورد بلا شوك. وقد أحسن الشاعر حين قال :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه !

فيجب على كل من الزوجين التغاضي عن بعض ما لا يحب أن يراه في الآخر، ويضع كلاهما في حسبانه أنه إذا كره في الآخر صفة فإنه لا بد أن تكون فيه صفة أخرى تشفع له .. وهذا هو بعينه ما أشار إليه الرسول ﷺ حين قال : «لا يفرك - لا يبغض - مؤمن مؤمنة ! إن كره منها خلقًا رضي منها آخر» . [أخرجه مسلم وغيره] .

---

(١) في ظلال القرآن . (الجزء الرابع ٦٠٥) .
(٢) كتاب الكبائر . لحافظ الذهبي . ص : ١٨٩ .

ماذا عند التوتر العائلي ؟

العلاقة بين الزوجين تنتظم في الإسلام وفق نظام خاص ومتميز عن سائر الأنظمة الاجتماعية الأخرى. وهذا التميز يرجع إلى كونها أهم وحدة بنائية في المجتمع لها أبلغ الأثر في البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والروحي للأمة. ونظرًا لمكانتها هذه فقد أولاها الإسلام عناية كبيرة؛ حيث وضع لها من التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية والتوجيهات التربوية – ما يجعلها تقوم على قواعد سليمة وأرضية ثابتة مستقرة .

والإسلام لم يكتف بوضع نظام وقائي للأسرة يضمن لها السلامة والوفاق فحسب – وهو ما تناولت شيئًا منه فيما سبق – ، بل وضع لها نظامًا آخر علاجيًّا يكفل لها حلًّا ناجعًا لكل المشكلات والخلافات التي تطرأ عليها .

ينبغي بصفة عامة عند حدوث أي توتر في الأسرة أن يظل أمره مكتومًا بين الزوجين يحاولان معًا إزالته والقضاء عليه . يقول الرسول ﷺ : **«استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان»** .

فإن لم يكن هناك بدٌّ من إعلام أحد ، فليكن أقرب المقربين إلى الأسرة، ولا يُخبَر إلا بوجود خلاف ما ، أما طبيعة الخلاف وماهيته فلا ينبغي إعلامه بها في هذه المرحلة. ولنا في آل بيت الرسول ﷺ أسوة حسنة، فقد جاء النبي إلى بيت فاطمة فلم يجد عليًّا، فقال : **أين ابن عمك؟** فقالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج. فقال النبي لرجل : **انظر أين هو؟** فقال: هو في المسجد راقد. فجاءه وهو مضطجع، وقد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب، فجعل النبي ﷺ يقول : **«قم يا أبا تراب.. قم يا أبا تراب»** .

قال راوي الحديث سهل بن سعد : «وما كان له اسم أحب إليه منه» . [الحديث أخرجه الشيخان].

وبنظرة سريعة إلى هذا الخبر يتبين لنا كيف أن السيدة فاطمة لم تخبر النبي ﷺ بطبيعة الخلاف وماهيته، بل كل ما أعلمته إياه هو مجرد وجود خلاف وحسب. كما يتبين حسن

تصرف الإمام علي بن أبي طالب الذي لم يدع مجالاً لاتساع شقة الخلاف والغضب، فترك زوجته وذهب إلى أفضل مكان ترتاح فيه الأعصاب وتصفو فيه النفوس .

كما يتبين لنا كيف كان الرسول ﷺ حكيمًا ، إذ لم يسأل ابنته عن أسباب الخلاف وتفاصيله، كما لم يعاتب أو يلوم الإمام عليا ، بل داعبه ولاطفه بأسلوب كان أبعد الأثر في زوال رواسب الغضب والضيق .

وهذا ما يجب علينا اتباعه أزواجًا وزوجات وآباء في مثل هذه المواقف ، سواء كان التوتر من جانب الزوجة أم من جانب الزوج . ولكن إن استمر التوتر من جانب أحد الطرفين فسيكون هناك علاج آخر. وسأتناول فيما يلي العلاج إذا استمر التوتر من جانب الزوجة ، على أن أتناول علاجه إذا كان من جانب الزوج بعد ذلك .

ماذا عند خوف نشوز الزوجة ؟

النشوز في اللغة : من (النَّشْز) وهو المكان المرتفع من الأرض وجمعه (نشوز) ويقال: نشزت المرأة بزوجها، إذا استعصت على زوجها وأبغضته .

وفي الاصطلاح الشرعي : عند أكثر الفقهاء يدور على أربع خصال: ترك الزينة والزوج يريدها ، وعصيان الزوج في الفراش ، والخروج من البيت بدون إذنه، وترك الفرائض الدينية كالغسل والصلاة. وقال الإمام محمد عبده وفئة من الفقهاء: إن النشوز أعم فيشمل كل عصيان سببه الترفع والإباء، ويقول الإمام الشهيد سيد قطب : أما غير الصالحات .. فهن الناشزات . (من الوقوف على النشز وهو المرتفع البارز من الأرض) وهي صورة حسية للتعبير عن حالة نفسية . فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرد .

والإسلام لا ينظر حتى وقوع التمرد والعصيان واستفحال أمرهما، بل يسارع باتخاذ إجراءات تدريجية تبغي القضاء على أعراض النشوز منذ الوهلة الأولى ، بهدف إصلاح الشأن ، وجمع الشمل ، وبقاء ما كان من المودة والرحمة على ما كان عليه .

وهذه الإجراءات ليست أبدًا للقسر والإرغام ، ولا للإهانة والإذلال. وإنما هي فقط لمواجهة بوادر التصدع والانشقاق، وللقضاء على أي انحراف من الممكن أن يفضي بالأسرة إلى الانهيار والدمار .

﴿وَٱلَّـٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤].

أول خطوة يجب اتخاذها هي: التنبيه ولفت النظر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فليس الأمر استبدادًا وطغيانًا، إنما هو أخذ ورد ومناقشة هادئة تبغي ردّ الأمور إلى نصابها.

والموعظة الحسنة ذات أثر بالغ في النفس والوجدان.. ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

والوعظ له أساليب متعددة متشعبة. والقرآن والسنة بهما حشد كبير من المواعظ الرقيقة والجادة في ذات الوقت.. هذه المواعظ لها أبلغ الأثر في النفوس بما تثيره فيها من مشاعر تتفجر وتفيض.

ويحسن في هذا المقام تذكير الزوجة بالذكريات الجميلة التي عاشوها معًا حينًا من الدهر.. لا سيما تلك الإفضاءات الجميلة التي كانت بينهما.. إفضاءات الجسد والمشاعر.. إفضاءات الهموم والأسرار، وإفضاءات الحب والتراحم.. وإفضاءات «الآهات» والنظرات. كما يجمل بالزوج أن يلفت نظر زوجته إلى ذلك الميثاق الغليظ الذي بينهما.. ميثاق الزواج الذي لا يستهين به قلبٌ أو عقل..

فضلاً عن تبصيرها بالعواقب الوخيمة التي ستحل بعلاقتهما إن هي تمادت في المسلك الذي تسلكه..

وكم هنّ كثيرات تلك الزوجات اللاتي يستجبن لمثل هذا الأسلوب المهذب الرقيق.. ولكن في - نفس الوقت والحين - هناك زوجات لا يجدي معهن مثل هذا الأسلوب، فيبقين على ما هنّ عليه، بل قد يتمادين في الانحراف كلما زيد لهن في النصح والتوجيه!

فتزداد الواحدة منهن في ترفعها واستكبارها كلما رأت الزوج مقبلاً عليها يحاول الإصلاح ورأب الصدع. وترفعها قد يكون بما لها من جمال، أو بما تملك من مال، أو بما لها من حَسَبٍ ونَسَب، أو لأي سمة أخرى قد تكون متسمة بها.

ومثل هذه يتبع معها الأسلوب الآخر.. ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤].

الهجر في المضجع.. أن يدير الزوج ظهره لزوجته في الفراش ولا يلتفت إليها. وليس معناه ترك حجرة النوم، أو منزل الزوجية، لأن هذا هجر للمضجع وليس هجرًا في

المضجع.. إن الهجر في المضجع - أكرر - هو أن ينام الزوج مع زوجته في نفس الفراش ولكن يوليها ظهره ولا يلتفت إليها- وسنرى حكمة ذلك بعد قليل -

وهناك تفسير مرفوض تمامًا ذكره البعض في تفاسيرهم.. هو أن الهجر يعني الربط. واستدلوا بكلام العرب، فيقال : (هجر البعير : إذا ربطه صاحبه بالهجار، والهجار، هوا الحبل تشد به رقبة البعير إلى سوقه) فيكون المعنى المقصود إذن - في رأيهم - من هذه الآية : أن الزوجة إن لم تستجب فقيدوها واربطوها في المضجع مكرهين لها على الجماع .

وقد تعقب هذا التفسير البعيد كل البعد عن مقصد القرآن - غير واحد من المفسرين - فرد عليه القاضي أبو بكر بن العربي من أحكامه فقال : يا لها من هفوة من عالم بالقرآن والسنة ! والذي حمله على هذا التأويل حديث غريب رواه ابن وهب عن مالك ..

كما تعقبه الزمخشري بأنه من تفسير الثقلاء!!

وقال الإمام أبو الأعلى المودودي : بأنه معنى بعيد عن قصد القرآن .. وبأنه لغو ؛ لا معنى له .

فكيف يليق بزوج أن يربط زوجته في الفراش مكرهًا لها على الجماع إلا إذا كان سخيفًا خسيسًا.. يسقط بفعله هذا عن مرتبة الحيوان، إذ أن الحيوان لا يفضي إلى رفيقته إلا بعد أن يقدم بين يديه شيئًا كثيرًا من المداعبة والملاطفة حتى يحظى بالرضا والقبول !

فهذا المعنى بعيد تمامًا عن مراد القرآن ..

والمعنى المأثور لدى جهابذة التفسير.. والمتفق مع قصد القرآن .. والموافق لمنطق العقل وسلامة الفطرة: هو أن ينام الزوج مع زوجته في نفس مكان خلوة الزوجين ولكن يوليها ظهره ولا يلتفت إليها.

ولهذا الإجراء ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ۝٣٤﴾ .. حكمة عالية .

ويخطئ بعض الكتاب - كما يقول الأستاذ العقاد - فيحسب أن العقوبة بالقطيعة والهجر في المضاجع تروع المرأة بما ينالها من الإيلام الحسي، وفوات المتعة الجسدية، إذ كانت حكمة القرآن الكريم أبلغ من ذلك، وأنفع في هذه الخصومة الزوجية، وإنما تردع هذه العقوبة المرأة ، لأنها تذكرها بالمقدرة التي توجب للرجل الطاعة في أعماق وجدانها، وهي مقدرة العزم والإرادة والغلبة على الدوافع الحسية. وبهذه المقدرة يستحق الرجل من المرأة أن يطاع،

فلا تشعر بالغضاضة من تسليمها له بهذه الطاعة .

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتابه «نداء للجنس اللطيف» : «أما الهجر : فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها، ويشق عليها هجره إياها، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه، وهو الفراش، ولا بهجر الحجرة التي يكون فيها الاضطجاع، وإنما يتحقق بهجر الفراش نفسه، وتعمد هجر الفراش، أو الحجرة زيادة في العقوبة لم يأذن بها الله تعالى. وربما يكون سببًا لزيادة الجفوة، وفي الهجر في المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع والبيت الذي هو فيه؛ لأن الاجتماع في المضجع هو الذي يهيج شعور الزوجية، فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول اضطرابها الذي أثارته الحوادث قبل ذلك. فإذا هجر المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة رجا أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسي إلى سؤاله عن السبب، ويهبط بها من نشز المخالفة إلى صف الموافقة..» .

والذي يراه الأستاذ العقاد رحمه الله تعالى في كتابه «عبقرية محمد» أن الأستاذ رشيد رضا رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية، وأن الحكمة في إيثارها أعمق جدًا من ظاهر الأمر كما رآه الأستاذ .

فأبلغ العقوبات – ولا ريب – هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره وتشككه في صميم كيانه: في المزية التي تعتز بها، ويحسبها مناط وجوده وتكوينه ..

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها.

فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنة ، وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم، وحسبها أنها لا «تقاوم» بديلاً من القوة والضلاعة في الأجساد والعقول .

فإذا قاربت الرجل مضاجعة له ، وهي في أشد حالاتها إغراء بالفتنة ثم لم يبالها، ولم يؤخذ بسحرها، فما الذي يقع في وقرها وهي تهجس بما تهجس به في صدرها .

أفوات سرور ؟ أحنين إلى السؤال والمعاتبة؟ كلا .. بل يقع في وقرها أن تشك في صميم أنوثتها وأن ترى الرجل في أقدر حالاته جديرًا بهيبتها وإذعانها، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة. فهو مالك أمره إلى جانبها وهي إلى جانبه لا تملك شيئًا إلا أن تثوب إلى التسليم، وتفر من هوان سحرها في نظرها قبل فرارها من هوان سحرها في نظر مضاجعها ..

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد، بل هذا هو الصراع الذي تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح؛ لأنها جرّبت أمضى سلاح في يديها فارتدت بعده إلى الهزيمة التي لا تكابر نفسها فيها.. فإنما تكابر ضعفها حين تلوذ بفتنتها.. فإذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذلك.. وهنا حكمة العقوبة البالغة التي لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة.

إنما العقوبة إبطال العصيان ، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه. والهجر في المضاجع هو بمثابة الرجوع إلى هذا الإحساس..»

هذا هو الإجراء الثاني لمعالجة نشوز الزوجة.. وإذا لم يُجدِ كما لم يُجدِ الإجراء الأول.. لا بد أن تكون مثل هذه الزوجة من نوع آخر.. نوع لا تجدي معه مثل هذه الإجراءات.. وقد يجدي معه إجراء آخر! «واضربوهن».

ومثل هذا الإجراء لا يُتخذ إلا مع هذا النوع من الزوجات اللاتي لا يستجبن إلا له ولا يجدي معهن أي إجراء آخر!

وهذا هو بعينه ما توصل إليه علم النفس الحديث بشأن بعض أنواع المرض النفسي لنوع معين من النساء.. فبعد كثير من الدراسات النفسية المستندة إلى الواقع المشهود والملاحظات العلمية.. قرر علم النفس أن هناك صنفين من النساء يناسبهما هذا الأسلوب تمامًا ؛ لأنه يعالج عند الصنف الأول انحرافًا نفسيًا معينًا ، ويسبب نوعًا من اللذة والرضا للصنف الثاني .

وهاكم تصنيف علم النفس لهذين الصنفين من النساء :

الصنف الأول : هو الذي سلك «المسلك التحكمي» .. وهذا الصنف من النساء يجدن لذة ومتعة في القسوة والتسلط والسيطرة على الزوج . ومثل هذا الصنف لا بد من كسر شوكته؛ حتى يرتد إلى حالته السوية، وهذا لا يكون إلا بالضرب .

الصنف الثاني : هو الذي يسلك «المسلك الخضوعي» .. وهذا الصنف من النساء يجدن لذة الضرب، تشبه اللذة الجنسية (ماسوشيزم) Masochism.

وعن هذا الصنف من النساء يحدثنا طبيب أمراض نساء عن تجربته معهن فيقول : «.. لا يزال ضرب الزوج للزوجة يمارس في مستويات مختلفة ، والأكثر أنه سيظل يمارس في نسبة

معينة من الزيجات حتى يوم القيامة؛ وذلك.. **أن نسبة من الزوجات بعد عدد من مرات** الضرب يتملكهن في الضرب إحساس بمتعة أقرب إلى المتعة الجنسية (ماسوشيزم) وقد تأتي هي إلى بيت الزوجية بهذه الحالة، وفي كلا الحالين قد تسعى إلى الضرب، وعندما كنت أسألهن إن كن يعلمن قبل اقتراف الذنب أنهن سيعاقبن بالضرب؟ كانت الإجابة شبه الدائمة : بنعم بل منهن مَنْ كن يفتقدن الضرب إذا مر وقت طويل بدونه، وكان هذا يبدو لي أول الأمر شيئًا عجيبًا ويصيبني بالدهشة! وفهمت بعد ذلك..»[1].

على أنه ينبغي التنبيه على أن الرسول ﷺ قد وضح لنا كيف اتبع مثل هذا الإجراء .. الضرب .

فهو - أولاً - لم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر زوجة من زوجاته .

وقد قيد ﷺ هذا الضرب بشروط : تمنع أن يكون للقهر والإجبار ، وتمنع أن يكون للإهانة والإذلال، وتمنع أن يكون فيه أي إيذاء أو انتقام .

روى ابن ماجة والترمذي عن عمرو بن الأحوص الجشمي : أنه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ. ثم قال : «**ألا واستوصوا بالنساء خيرًا ، فإنما هن عوانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، ألا إن لكم على نسائكم حقًا ، ولنسائكم عليكم حقًا ، فحقكم عليهن: أن لا يوطئن فرشكم من تكروهن ألا وحقهن عليكم : أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**»[2] .

وجاء في السنن والمسند : عن معاوية بن حيدة القشيري، أنه قال : يا رسول الله ، ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»[3] .

. وجاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «**أيضرب أحدكم امرأته، ضرب العبد**

---

(١) دكتور حافظ يوسف ، كيف تفكر المرأة ، مطابع الأهرام التجارية ، ص ٤١ .

(٢) حديث حسن صحيح . (عوان) بفتح العين ، أي أسيرات. والمقصود بالفاحشة المبينة هنا بعض الذنوب القبيحة، وليس المراد الزنا فإنه يلزم عليه الحد. والضرب غير المبرح: يعني غير المؤثر .

(٣) لا تقبح ، بتشديد الموحدة أي لا تسمعها المكروه ، ولا تشتمها، ولا تقل : قبحك الله ، ونحو ذلك .

ثم يجامعها في آخر الليل؟!» وفي رواية عبد الرزاق عن عائشة : **«أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره»** .

وروى أبو داود والنسائي وابن ماجة : قال النبي ﷺ : **«لا تضربوا إماء الله»** .. فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ذَئِرت النساء على أزواجهن! فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن. فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن! فقال رسول الله ﷺ : **«لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن.. ليس أولئك بخياركم»**.

وأخرج ابن سعد والبيهقي عن أم كلثوم بنت الصديق رضي الله عنه، قالت : «كان الرجال نهوا عن ضرب النساء ثم شكوهن إلى رسول الله ﷺ ، فحل بينهم وبين ضربهن.. ثم قال : ولن يضرب خياركم» .

فهذه التقييدات والتوجيهات ينبغي مراعاتها في إجراء الضرب.. لأن الرسول ﷺ بسنته العملية والقولية والتقريرية .. موضح ومبين لآيات الذكر الحكيم ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل : ٤٤] .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هناك آدابًا معينة في تنفيذ مراحل المعالجة التدريجية لنشوز الزوجة.. وهي : أن يكون تنفيذها أمرًا محصورًا بين الزوجين.. فينبغي أن لا تمارس أمام أحد سواء كان من الأقارب أم من الغرباء.. وأن لا تكون أمام الأطفال؛ لأن ذلك سيكون له أثر غير محمود في تكوينهم النفسي والشعوري وفي نظرتهم إلى أمهم وأبيهم.. فضلاً عن عدم إعلام أي أحد بها لأن ذلك مما يخدش كرامة المرأة ويسبب لها إحراجًا قد يدفعها دفعًا إلى بقائها على ما هي عليه من النشوز والعناد، بل قد يدفعها إلى الازدياد والتمادي .

وإذا كان من الواجب أن تبقى هذه الإجراءات محتفظة بطابع السرية، فالأولى أن لا يعلم أحد بأسباب اتخاذها، لا سيما الضرب، لقول الرسول ﷺ – فيما أخرجه أبو داود وغيره: **«لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته»** . لأنه قد يكون في ذكر الأسباب ما يُخجل الزوجين أو أحدهما.. أو يكشف له سرًا .. أو يفضح له أمرًا.. والرسول ﷺ يقول : **«مَنْ ستر على مسلم عورة فكأنما أحيا ميتًا»** . [رواه الطبراني في الكبير والضياء عن شهاب، حديث صحيح] .
وقال : **«مَنْ ستر أخاه المسلم في الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة»** - [رواه أحمد . حديث صحيح] .

وهكذا نرى الخطوات والإجراءات التدريجية التي يجب اتخاذها في حالة خوف نشوز الزوجة.. الوعظ.. الهجر في المضجع.. الضرب.. وهذه الإجراءات مشروعة على الترتيب والتدرج.. وعند تحقق استجابة الزوجة لأي إجراء منها ، يجب على الزوج أن لا يتجاوز إلى ما وراءه، فإن تجاوزه فقد تعدى وظلم.. وهنا يجب أن يُوقف عند حده :

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾ ..

ولكن هذه الإجراءات الثلاثة قد لا تجدي.. وهنا تكون العلاقة بين الزوجين قد وصلت أوج توترها، مما قد يؤدي إلى وقوع الشقاق بينهما.. في هذه الحالة لا بد من اتخاذ إجراء آخر.. هذا الإجراء يأتي من خارج الأسرة؛ لأن الإصلاح من داخل الأسرة قد أصبح غير مثمر.. فلا بد إذن من «التحكيم» .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾ .

فالإسلام لا ينتظر حتى يقع الشقاق بالفعل ، ويتصدع البناء الأسري ، وينفصم عقد الزواج، لأن العلاج حين يقع الشقاق قلما يثمر.. وما لم يتدارك الأمر منذ البداية فسيئول إلى زعزعة الكيان الأسري زعزعةً، لا يصلح معها استمرار حياة هنيئة مطمئنة لأعضاء هذه الوحدة الاجتماعية. فيتم بعث حَكَم ثقة، من أهل الزوج، وحكم ثقة من أهل الزوجة، ليجتمعا في مجلس عائلي هادئ.. بعيدًا عن جو التوتر والنزاع .

ولماذا يكون الحكمان من أهلهما ؟

لأنه قد تكون هناك أشياء يخجل الزوجان من اطلاع الغرباء عليها ، ولكون الحكمين اللذين من أهلهما أشد حرصًا من غيرهما على مصلحة الأسرة .. وأقوى رغبةً في استمرار علاقة الزوجين.. وأكثر ائتمانًا على أسرارهما ؛ لأن في إفشائها مساس بهما بقدر ما فيها من مساس بالزوجين .

ويقوم الحكمان بدراسة الأحوال ، واستقصاء خلفيات النزاع ، ولا يدّخران وسعًا في إزالة أسباب المتاعب والخلاف .. ﴿إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما﴾ .

وهنا ينبغي طرح السؤال التالي : ما هي السلطات التي يخولها التشريع للحكمين؟ هل لهما سلطة الإصلاح والتفريق بدون إذن الزوجين ، أم ليس لهما هذه السلطة إلا برضى الزوجين ؟

في هذه المسألة رأيان :

الرأي الأول : ليس للحكمين أن يفرقا إلا برضا الزوجين لأنهما وكيلان عنهما، ولا بدّ من رضى الزوجين فيما يحكمان به. وحجة من قال بهذا الرأي : أن الله تعالى لم يضف إلى الحكمين إلا الإصلاح ﴿إن يريدا إصلاحا﴾ وهذا يقتضي أن يكون ما وراء الإصلاح غير مفوض إليهما ، ولأنهما وكيلان ولا ينفذ حكمهما إلا برضى الموكل.

وهذا هو مذهب أبي حنيفة وأحمد رضي الله عنهما. وهو مروي عن الحسن البصري، وقتادة، وزيد بن أسلم، رضي الله عنهم .

الرأي الثاني : للحكمين أن يلزما الزوجين بدون إذنهما ما يريا فيه المصلحة، فإن رأيا التطليق طلقا ، وإن رأيا أن تفتدي المرأة بشيء من مالها فعلا، فهما حاكمان موليان من قبل الإمام وينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة. وحجة مَنْ قال بهذا الرأي: أن الله تعالى سمّى كلاً منهما حكماً ﴿فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها﴾ والحكم هو الحاكم ، ومن شأن الحاكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه رضي أم سخط، وهذا هو مذهب مالك . وهو مروي عن عليّ ، وابن عباس، والشعبي، رضي الله عنهم.

وقد رجح الإمام الطبري الرأي الأول ، فقال : «وليس للحكمين ولا لواحد منهما الحكم بالفرقة بينهما، ولا بأخذ مال إلا برضى المحكوم عليه بذلك» .

ماذا عن نشوز الزوج أو إعراضه ؟

رأينا فيما سبق كيف وضح المنهج الإسلامي الحكيم الإجراءات الواجب اتخاذها في حالة نشوز الزوجة، والآن نرى توضيحه لموقف الزوجة حين تخشى نشوز الزوج أو إعراضه عنها لسبب أو لآخر.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء : ١٢٨] .

في حالة خوف الزوجة من زوجها نشوزًا : أي تجافيًا عنها وترفعًا عن مصاحبتها، كراهة

لها ومنعًا لحقوقها. أو إعراضًا : بأن يقل مجالستها ومحادثتها ولا يأنس بها.. في هذه الحالة يجمل بالزوجين أن يجلسا مجلسًا عائليًا هادئًا.. بعيدًا عن الانفعالات النفسية والتوترات الشعورية، ويقوما معًا بتقصي الأسباب التي قد تكون مؤدية إلى نشوز الزوج أو إعراضه. ويعملا بكامل جهدهما على إزالتها والقضاء عليها، ولا مانع إطلاقًا في هذا المقام من أن تقوم الزوجة بعملية استرضاء لزوجها.. بوسائل متعددة : مالية أو حيوية ، والأمر في هذا متروك للزوجة وتقديرها وما تراه متمشيًا مع مصلحتها ، لا إلزام عليها ولا تكليف .

وعلى الزوجين أن يستجيبا لبواعث الصلح ودواعي الاستمرار ويطردا من داخلهما هواجس الخصومة والشقاق: فالصلح على الإطلاق خير من الفرق والطلاق :﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء : ١٢٨] .

وإذا كان من السمات الملازمة للنفس الإنسانية.. سمة البخل بمعناه الواسع.. البخل بالأموال.. والبخل بالعواطف والأحاسيس.. والبخل بأي نوع من أنواع الماديات أو المعنويات عامة. فإن عليكم أيها الأزواج المؤمنون أن تتعالوا عن هذه السمة قدر وسعكم، وتستجيبوا لنداء الإحسان ولهتاف التقوى في نفوسكم؛ فتحسنوا الصحبة والعشرة، وتتقوا ما لا يجوز من الفشوز والأعراض في حق المرأة. والله الخبير بما تعملون سيجازيكم بما تستحقونه :

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء : ١٢٨] .

روى البخاري عن عائشة في قوله تعالى :

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء : ١٢٨] .

أنها قالت : «هي المرأة تكون عند الرجل ، لا يستكثر منها ، فيريد طلاقها ويتزوج عليها ، تقول : أمسكني ، ولا تطلقني ، وتزوج غيري، فأنت في حل من النفقة عليّ والقسمة لي» .

ولا يخفى على أحد أن الأولاد عادة ما يكونون خير سفراء بين أمهم وأبيهم عند حدوث أي توتر، ويمكن استخدامهم كوسيلة فعالة ومؤثرة في إزالة أي أزمة، وفي خلق جو من التفاهم والتقارب. فعلى الزوجة (أو الزوج) أن تضع في حسبانها ونصب عينيها هذه الوسيلة عند حدوث أي نشوز أو إعراض من الزوج .

كيف فهم المفسرون آيات النشوز
على مدى ألف وأربعمائة سنة ؟

انطلاقا من الحقيقة القائلة بأن لتغير الزمان ولاختلاف البيئة أثرهما الواضح والفعال في تباين عقول ووجدانات البشر، ومن الحقيقة القائلة بأن القرآن جاء لكل الناس ولكل الأزمان ولكل البيئات.. انطلاقًا من هذا وذاك، فإن القرآن لم يمنع من تغاير الأفهام لآياته الكريمة تبعًا لتأثير البيئة وتأثير الزمن. وفيما يلي مثال حي على تطور الفهوم وتغايرها بتطوير وتغاير كل من البيئة والزمن.. وهذا المثال يتعلق بآيات المعالجة التدريجية لنشوز الزوجة .

قال تعالى : ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء : ٣٤ - ٣٥] .

قال ابن عباس[1] :

﴿فعظوهن﴾ بالعلم والقرآن **﴿واهجروهن في المضاجع﴾** حولوا عنهنّ وجوهكم في الفراش **﴿واضربوهن﴾** ضربًا غير مبرح ولا شائن **﴿فإن أطعنكم﴾** في المضاجع **﴿فلا تبغوا﴾** فلا تطلبوا **﴿عليهن سبيلاً﴾** في الحب **﴿إن الله كان عليا﴾** أعلى من كل شيء **﴿كبيرا﴾** أكبر من كل شيء، يكلفكم ذلك فلا تكلفوا من النساء ما لا طاقة لهن به من المحبة .

وقال ابن جرير الطبري[2] في تفسيره : «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» :

﴿واهجروهن في المضاجع﴾ حدثنا المثنى بعد إسناد . قال : لا يهجرها إلا في المبيت في

---

(١) عبد الله بن عباس : (٣ ق هـ - ٦٨ هـ = ٦١٩ - ٦٨٧ م) ولد بمكة . ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. وينسب له «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» جمعه الفيروز أبادي من مرويات المفسرين عنه في كل آية فجاء تفسيرًا حسنًا. الأعلام ٤ : ٩٥ ، والإصابة ت ٤٧٧٢ ، وصفة الصفوة ١ : ٣١٤ ، وحلية ١ : ٣١٤ ، وذيل المذيل ٢١ .

(٢) ابن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ = ٨٣٩ - ٩٢٣ م) : ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. الأعلام ٦ : ٦٩ ، وإرشاد الأريب ٦ : ٤٢٣ ، وتذكرة الحفاظ ٢ : ٣٥١ ، والوفيات ١ : ٤٥٦ ، وطبقات السبكي ٢ : ١٣٥ .

المضجع، ليس له أن يهجر في كلام ولا شيء إلا في الفراش.. فلا يكلفها أن تحبه، فإن قلبها ليس في يديها، ولا معنى للهجر في كلام العرب إلا على أحد ثلاثة أوجه: **أحدها**، هجر الرجل كلام الرجل وحديثه وذلك رفضه وتركه، يقال منه: هجر فلان أهله يهجرها هجرًا وهجرانًا. **والآخر** الإكثار من الكلام بترديد، كهيئة الكلام الهازئ، يقال منه: هجر فلان في كلامه يهجرُ هجرًا، إذا هذى، ومدى الكلمة، وما زالت تلك هجيراه وأهجيراه. **والثالث** - هجر البعير إذا ربطه صاحبه بالهجار، وهو حبل يربط في حقويها ورسغها.

قال حيان: حدثنا ابن المبارك، قال: أخبرنا يحيي بن بشر سمع عكرمة يقول في قوله: **﴿واضربوهن﴾** ضربًا غير مبرح، قال: قال رسول الله ﷺ: **«واضربوهن إذا عصينكم في المعروف ضربًا غير مبرح»**.

﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا﴾ يقول: فإن أطاعتك فلا تبغ عليها العلل.

وقال الزمخشري[1] في «الكشاف»:

«نشوزها أو نشوصها أي تعصي زوجها ولا تطمئن إليه، وأصله الانزعاج. **﴿في المضاجع﴾** في المراقد، أي لا تداخلوهن تحت اللحف، وهو كناية عن الجماع، وقيل: هو أن يوليها ظهره في المضجع، وقيل في المضاجع في بيوتهن التي يبتن فيها أي لا تبايتوهن. وقرئ في المضجع والمضطجع، وذلك لتعرف أحوالهن وتحقق أمرهن في النشوز. أمر بوعظهن أولاً، ثم هجرانهن، ثم بالضرب إن لم ينجح فيهن الوعظ والهجران. وقيل معناه: أكرهوهن على الجماع، وأربطوهن من هجر البعير إذا شده بالهجار، وهذا من تفسير الثقلاء. وقالوا: يجب أن يكون ضربًا غير مبرح، لا يجرحها، ولا يكسر لها عظمًا، ويتجنب الوجه. وعن النبي ﷺ: **«علق سوطك حيث يراه أهلك»**. وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام، فإذا غضب على إحدانا ضربها بعود المشجب يكسره عليها.

ويروي عن الزبير أبيات منها:

---

(١) محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ = ١٠٧٥ - ١١٤٤ م): ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلي مكة فجاور بها زمنًا، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم). الأعلام ٧: ١٧٨، وفيات الأعيان ٢: ٨١.

﴿فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ : فأزيلوا عنهنّ التعرض بالأذى والتوبيخ والتجني ، وتوبوا عليهنّ ، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن بعد رجوعهن إلى الطاعة والانقياد وترك النشوز.

وقال القرطبي[1] في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» :

«السابعة : في قوله تعالى : ﴿واهجروهنّ في المضاجع﴾ وقرأ ابن مسعود والنخعي وغيرهما (في المضجع) على الإفراد، كأنه جنس يؤدي على الجميع . والهجر في المضاجع هو أن يضاجعها ويوليها ظهره ولا يجامعها، عن ابن عباس وغيره.

وقال مجاهد : جنبوا مضاجعتهن فيتقدر على هذا الكلام حذف ، ويعضده ﴿اهجروهن﴾ من الهجران وهو البعد، يقال : هجره أي تباعد ونأى عنه. ولا يمكن بعدها أن يترك مضاجعتها. وقال معناه: إبراهيم النخعي والشعبي وقتادة والحسن البصري، رواه ابن وهب وابن القاسم عن مالك، واختاره ابن العربي وقال : حملوا الأمر على الأكثر الموفي ويكون هذا القول كما تقول : اهجره في الله وهذا أصل مالك .

قلتُ هذا قول حسن ، فإن الزوج إذا أعرض عن فراشها فإن كانت محبة للزوج ، فذلك يشق عليها، فترجع للصلاح، وإن كانت مبغضة، فيظهر النشوز منها، فيتبين أن النشوز من قبلها. وقيل: ﴿اهجروهن﴾ من الهجر ، وهو القبيح من الكلام، أي غلظوا عليهن في القول، وضاجعوهن للجماع وغيره، قال معناه : سفيان، وروى عن ابن عباس. وقيل : أي شدوهنّ وثاقًا في بيوتهن، من قولهم: هجر البعير أي ربطه بالهجار، وهو حبل يشد به البعير وهو اختيار الطبري وقدح في سائر الأقوال. وفي كلامه في هذا الموضع نظر. وقد رد عليه القاضي أبو بكر بن العربي من أحكامه فقال : يا لها من هفوة من عالم بالقرآن والسنة! والذي حمله على هذا التأويل حديث غريب رواه ابن وهب عن مالك: أن أسماء بنت أبي بكر الصديق أتت الزبير بن العوام ، وكانت تخرج حتى عوتب في ذلك. قال: وعتب عليها

---

(١) محمد بن أحمد القرطبي (.. - ٦٧١ هـ = .. - ١٢٧٣ م) : من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق، واستقر بمنية ابن خصيب في شمالي أسيوط بمصر، وتوفى بها. الأعلام ٥ : ٣٢٢ ، والجامع لأحكام القرآن : مقدمة المجلد الأول ، ونفح الطيب ١ : ٤٢٨ .

وعلى ضرتها، فعقد شعر واحدة بالأخرى ثم ضربها ضربًا شديدًا، وكانت الضرة أحسن اتقاء، وكانت أسماء لا تتقي، وكان الضرب لها أكثر، فشكت إلى أبيها أبي بكر رضي الله عنه: فقال لها : أي بنيّة اصبري، فإن الزبير رجل صالح، ولعله أن يكون زوجك في الجنة . ولقد بلغني أن الرجل إذا ابتكر بامرأة تزوجها في الجنة. فرأى الربط والعقد مع احتمال اللفظ مع فعل الزبير على هذا التفسير، وهذا الهجر غايته عند العلماء شهر، كما فعل النبي ﷺ حين أسَرّ إلى حفصة فأفشته إلى عائشة، وتظاهرتا عليه، ولا يبلغ به الأربعة أشهر التي ضرب الله أجلاً عذرًا للمولى» .

«الثامنة : ﴿واضربوهن﴾ أمر الله أن يبدأ النساء بالموعظة أولاً ثم بالهجران، فإن لم ينجعا فالضرب، فإنه هو الذي يصلحها له ويحملها على توفية حقه. والضرب في هذه الآية هو ضرب بالأدب غير المبرح، وهو الذي لا يكسر لها عظمًا ولا يشين جارحة كالكزة ونحوها، فإن المقصود منه الصلاح لا غير. فلا جرم إذا أدى إلى الهلاك وجب الضمان، وكذلك في القول في ضرب المؤدب غلامه لتعليم القرآن والأدب. وفي صحيح مسلم : «**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح**» . الحديث أخرجه من حديث جابر الطويل في الحج. أي لا يدخلن منازلكم أحدًا ممن تكرهونه من الأقارب والنساء والأجانب، وعلى هذا يحمل ،، رواه الترمذي وصححه عن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ، فقال : «**ألا واستوصوا بالنساء خيرًا ، فإنهن عوانٍ عندكم لا تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً. ألا أن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأما حقكم على نسائكم، فلا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون ، وألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**» . قال : حديث حسن صحيح فقوله : «بفاحشة مبينة» يريد لا يدخلن من يكره أزواجهن، وليس المراد بذلك الزنا، فإن ذلك محرم ويلزم عليه الحد . فقال عليه السلام : «**اضربوا النساء إذا عصينكم في معروف ضربًا غير مبرح**» . قال عطاء: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال :

بالسواك ونحوه . وروى أن عمر رضي الله عنه ضرب امرأته فسئل في ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لا يسأل الرجل فيم ضرب أهله**» .

«التاسعة : قوله تعالى : ﴿**فإن أطعنكم**﴾ أي تركن النشوز ﴿**فلا تبغوا عليهن سبيلاً**﴾ أي لا تبغوا عليهن بقول أو فعل . وهذا نهي عن ظلمهن بعد تقرير الفضل عليهن، والتمكن من ذلهن. وقيل : المعنى لا تكلفوهن الحب لكم ، فإنه ليس بالهين» .

وقال النسفي[1] في تفسيره «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» .

« ﴿**واهجروهن في المضاجع**﴾ : في المراقد أي لا تداخلوهن تحت اللحف وهو كناية عن الجماع، أو هو أن يوليها ظهره في المضجع: لأنه لا يقل عن المضاجع.. ﴿**واضربوهن**﴾ ضربًا غير مبرح . أي بوعظهن أولاً ثم بهجرانهن في المضاجع، ثم بالضرب إذا لم ينجع فيهن الوعظ والهجران.. ﴿**فإن أطعنكم**﴾ : بترك النشوز ﴿**فلا تبغوا عليهن سبيلاً**﴾: فأزيلوا عنهن التعرض بالأذى.. وهو من بغيت الأمر، أي طلبته. أي إن علت أيديكم عليهن فاعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن، فاجتنبوا ظلمهن . ﴿**إن الله كان علياً كبيرًا**﴾: وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه، ثم تتوبون فيتوب عليكم. فأنتم أحق بالعفو عمن يجني عليكم إذا رجع..» .

وقال ابن كثير[2] في تفسيره :

« ﴿**واهجروهن في المضاجع**﴾ وقال علي بن أبي طلحة أيضًا عن ابن عباس : يعظها فإن هي قبلت وإلا هجرها في المضجع ولا يكلمها من غير أن يود نكاحها وذلك عليها شديد. وقال مجاهد والشعبي وإبراهيم ومحمد بن كعب ومقسم و قتادة : الهجر هو ألا يضاجعها. وقال أبو داود حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد بن مسلمة عن علي بن زيد

(١) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (.. - ٧١٠ هـ = .. - ١٣١٠ م) : من أهل إيذج (من كور أصبهان) ووفاته فيها . نسبته إلى «نسف» بلاد السند، بين جيحون وسمرقند. الأعلام ٤ : ٦٧ ، والفوائد البهية ١٠١ ، والجواهر المضية ١ : ٢٧٠ ، والدرر الكامنة ٢ : ٢٤٧ ، ومفتاح السعادة ٢ : ٥٧ . وفي تاريخ وفاته خلاف : قيل ٧٠١ وقيل: بعد ٧١٠ .

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ = ١٣٠٢ - ١٣٧٣ م) : ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ، ورحل في طلب العلم. وتوفي بدمشق . الأعلام ١ : ٣٢٠ ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٣ .

عن أبي مرة الرقاش عن عمه عن النبي ﷺ قال : «**فإن خفتم نشوزهن فاهجروهن في المضاجع**» قال حماد: يعني النكاح. وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدقة القشيري أنه قال : «يا رسول الله ، ما حق امرأة أحدنا عليه؟» قال : «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تهجر إلا في البيت**» . وقوله : ﴿**واضربوهن**﴾ إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران فلكم أن تضربوهن ضربًا غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : «**واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوانٍ ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف**» . وكذا قال ابن عباس وغير واحد ضربًا غير مبرح. قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر. قال الفقهاء هو ألا يكسر فيها عضوًا ولا يؤثر شيئًا . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله أن تضربها ضربًا غير مبرح، ولا تكسر لها عظمًا ، فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله عنها الفدية، وقال سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبد الله بن عمر عن إياس بن عبد الله بن أبي دؤاب قال : قال رسول الله ﷺ : «**ولا تضربوا إماء الله**» . فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : ذَئرت النساء على أزواجهن، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ : «**لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن، ليس أولئك بخياركم**» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة. وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود يعني أبا داود الطيالسي حدثنا ابن عوانة عن داود الأودي عن عبد الرحمن السلمي عن الأشعث بن قيس قال : ضفت عمر رضي الله عنه فتناول امرأته فضربها، فقال يا أشعث ، احفظ عني ثلاثًا حفظتهن عن رسول الله ﷺ : لا تسأل الرجل فيم ضرب امرأته، ولا تنم إلا على وتر، ونسى الثالثة. وكذا رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة عن حديث عبد الرحمن بن مهدي عن أبي عوانة عن داود الأودي .

وقوله تعالى : ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك وليس له ضربها وهجرانها .

وقوله : ﴿**إن الله كان عليا كبيرًا**﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء بغير سبب فإن الله العلي الكبير وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن» .

وقال الألوسي[1] في تفسيره «روح المعاني» :

« ﴿**واهجروهن في المضاجع**﴾ أي مواضع الاضطجاع ، والمراد اتركوهن منفردات في مضاجعهن فلا تداخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون الكلام كناية عن ترك جماعهن وإلى ذلك ذهب ابن جبير، وقيل: المراد اهجروهن في الفراش بأن تولوهن ظهوركم فيه ولا تلتفتوا إليهن، وروى ذلك عن ابن جعفر رضي الله تعالى عنه، ولعله كناية أيضًا عن ترك الجماع، وقيل : المضاجع المبايت أي اهجروا حجرهن ومحل مبيتهن. وقيل : (في) للسببية أي اهجروهن بسبب المضاجع أي بسبب تخلفهن عن المضاجعة ، وإليه يشير كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيما أخرجه عنه ابن أبي شيبة من طريق ابن الضمي، فالهجران على هذا بالمنطق ، قال عكرمة: بأن يغلظ لها القول، وزعم بعضهم أن المعنى أكرهوهن على الجماع واربطوهن من هجر البعير إذا شده بالهجار، وتعقبه الزمخشري بأنه تفسير الثقلاء. وقال ابن المنير: لعل هذا المفسر يتأيد بقوله تعالى : ﴿**فإن أطعنكم**﴾ فإنه يدل على تقدم إكراه في أمر ما ، وقرينة المضاجع ترشد إلى أنه الجماع، فإطلاق الزمخشري لما أطلقه في حق هذا المفسر من الإفراط. انتهى وأظن أن هذا لو عرض على الزمخشري لنظم قائله في سلك ذلك المفسر، ولعد تركه من التفريط . وقرئ (في المضجع) .

﴿**واضربوهن**﴾ يعني ضربًا غير مبرح، كما أخرجه ابن جرير عن حجاج عن رسول الله ﷺ . وفسر غير المبرح بألا يقطع لحمًا ولا يكسر عظمًا ، وعن ابن عباس أنه الضرب بالسواك ونحوه. والذي يدل عليه الساق ، والقرينة العقلية أن هذه الأمور الثلاثة مترتبة فإذا خيف نشوز المرأة تنصح، ثم تهجر، ثم تضرب. إذ لو عكس استغنى بالأشد عن الأضعف، وإلا فالواو لا تدل على الترتيب وكذا الفاء (فعظوهن) لا دلالة لها على أكثر من ترتيب المجموع، فالقول بأنها أظهر الأدلة على الترتيب ليس بظاهر، وفي الكشف : الترتيب مستفاد من دخول الواو على

---

(١) محمود بن عبد الله الألوسي (١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ = ١٨٠٢ - ١٨٥٤م) : من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. الأعلام ٧ : ١٧٦ ، وأعلام العراق ٢١ ، وجلاء العينين ٢٧ و٢٨ ، وأعيان البيان ٩٩ .

أجزئة مختلفة في الشدة والضعف مترتبة على أمر مدرج ، فإنما النقص هو الدال على الترتيب .

هذا وقد نص بعض أصحابنا : أن للزوج أن يضرب المرأة على أربع خصال وما هو في معنى الأربع : ترك الزينة والزوج يريدها ، وترك الإجابة إذا دعاها لفراشه ، وترك الصلاة – في رواية والغسل والخروج من البيت إلا لعذر شرعي. وقيل : له أن يضربها متى أغضبته ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما – كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوام رضي الله عنه ، فإذا غضب على واحدة منا ضربها بعود المشجب حتى يكسره عليها .

ولا يخفى أن تحمل أذى النساء والصبر عليهن أفضل من ضربهن إلا لداع قوي ، فقد أخرج ابن سعد والبيهقي عن أم كلثوم بنت الصديق رضي الله عنه قالت : «كان الرجال نهوا عن ضرب النساء، ثم شكوهن إلى رسول الله ﷺ فخلى بينهم وبين ضربهن، ثم قال : ولن يضرب خياركم» .

وقال الشيخ الجاوي[1] في تفسيره «مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» : ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ : أي حونوا عنهن وجوهكم في المراقد فلا تداخلوهن تحت اللحف إن عمّ النشوز ولم تنفعهن النصيحة . ﴿واضربوهن﴾ : إن لم ينجع الهجران ضربًا غير مبرح ولا شائن والأولى ترك الضرب، فإن ضَرَبَ فالواجب أن يكون الضرب بحيث لا يكون مفضيًا إلى الهلاك. بأن يكون مفرقًا على البدن، وبألا يكون في موضع واحد وألا يوالي به،وأن يتقي الوجه، وأن يكون بمنديل ملفوف» .

وقال الإمام محمد عبده[2] في تفسيره :

«إن مشروعية ضرب النساء ليست بالأمر المستنكر في العقل أو الفطرة فيحتاج إلى التأويل، فهو أمر يحتاج إليه في حال فساد البيئة وغلبة الأخلاق الفاسدة. وإنما يباح إذا رأى

---

(١) محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليمًا، التناري بلدا (.. – ١٣١٦ هـ = .. – ١٨٩٨م) : هاجر إلى مكة وتوفي بها عرّفه «بيمور» بعالم الحجاز. الأعلام ٦ : ٣١٨ ، وتاريخ الشعراء الحضرميين ٣ : ١٧١ .

(٢) محمد عبده (١٢٦٦ – ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ – ١٩٠٥ م) : والدته من حصة شبشير (من قرى الغربية بمصر) ، ووالده من محلة نصر قرية من قرى مركز شبراخيت بالبحيرة، وتعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم الأزهر. ونفي للشام، وسافر إلى باريس، وعاد إلى بيروت، ثم إلى مصر، وتوفي بالإسكندرية، ودفن في القاهرة ، ولد في بلدة أبيه أو أمه على خلاف بين المؤرخين، ولكنه على أية حال درج ونشأ في محلة نصر لا يختلف في هذا أحد. الأعلام ٦ : ٢٥٢ . والشيخ محمد عبده للأستاذ أحمد الشايب ١٥ .

الرجل أن رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه، وإذا صلحت البيئة وصرن يعقلن النصيحة ويستجبن للوعي، أو يزدجرن بالهجر، فيجب الاستغناء عن الضرب ، فلكل حال حكم يناسبها في الشرع، ونحن مأمورون على كل حال بالرفق بالنساء واجتناب ظلمهن، وإمساكهن بمعروف، أو تسريحهن بإحسان، والأحاديث في الوصية بالنساء كثيرة جدًا .

أقول : ومن هذه الأحاديث ما هو في تقبيح الضرب والتنفير عنه، ومنها حديث عبد الله ابن زمعة في الصحيحين قال : قال رسول الله ﷺ : «**أيضرب أحدكم امرأته، كما يضرب العبد ثم يجامعها في آخر الليل**» . وفي رواية عبد الرزاق عن عائشة: «**أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره**» .

يذكر الرجل بأنه إذا كان يعلم من نفسه أن لا بد له من ذلك الاجتماع والاتصال الخاص بامرأته وهو أقوى وأحكم اجتماع يكون بين اثنين من البشر، يتحد أحدهما بالآخر اتحادًا تامًا فيشعرك منهما بأن صلته بالآخر أقوى من صلة بعض أعضائه ببعض. إذا كان لا بد من هذه الصلة، والوحدة التي تقتضيها الفطرة، فكيف يليق به أن يجعل امرأته، وهي كنفسه، مهينة كمهانة عبده، بحيث يضربها بسوطه أو يده، حقًا! إن الرجل الحيي الكريم ليتجافى به طبعه عن مثل هذا الجفاء، ويأبى عليه أن يطلب منهن الاتحاد بمن أنزلها منزلة الإماء، فالحديث أبلغ ما يمكن أن يقال في تشنيع ضرب النساء، وأذكر أنني هديت إلى معناه العالي قبل أن أطلع على لفظه الشريف، فكنت كلما سمعت أن رجلاً ضرب امرأته أقول : يا للعجب، كيف يستطيع الإنسان أن يعيش عيشة الأزواج مع امرأة تضرب، تارة يسطو عليها بالضرب، فتكون منه كالشاة من الذئب، وتارة يذل لها كالعبد، طالبًا منتهى القرب؟.

لكن لا ننكر أن الناس متفاوتون: فمنهم من لا تطيب له هذه الحياة، فإذا لم تقدر امرأته بسوء تربيتها تكريمه إياها حق قدره، ولم ترجع عن نشوزها، فالوعظ والهجران، وإلا فارقها وسرحها بإحسان إلا أن يرجو صلاحها بالتحكيم الذي أرشدت إليه الآية. ولا يضرب، فإن الأخيار لا يضربون النساء، وإن أبيح لهم ذلك للضرورة. فقد روى البيهقي من حديث أم كلثوم بنت الصديق رضي الله عنها قالت : كان الرجال نهوا عن ضرب النساء ثم شكوهن لرسول الله ﷺ فخلى بينهم وبين ضربهن ثم قال : «**ولن يضرب خياركم**» فما أشبه هذه الرخصة بالخطر، وجملة القول أن الضرب سلاح مر، قد يستغنى عنه الخيِّر الحر، ولكنه لا

يزول من البيوت بكل حال ، أو يعم التهذيب النساء والرجال.

هذا وإن أكثر الفقهاء قد خصوا بالنشوز الشرعي الذي يبيح الضرب إن احتيج إليه لإزالته، بخصال قليلة: كعصيان الرجل في الفراش، والخروج من الدار بغير عذر، وجعل بعضهم تركها الزينة وهو يطلبها نشوزًا وقالوا : «له أن يضربها أيضًا على ترك الفرائض الدينية كالغسل والصلاة» . والظاهر أن النشوز أعم فيشمل كل عصيان سببه الترفع والإباء. ويفيد هذا قوله : ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً**﴾ قال الأستاذ الإمام: أي إن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية فلا تبغوا بتجاوزها إلى غيرها فابدءوا بما بدأ به الله من الوعظ، فإن لم يفد، فليهجر، فإن لم يفد فليضرب، فإن لم يفد هذا أيضًا يلجأ إلى التحكيم، ويفهم من هذا: أن القانتات لا سبيل عليهن حتى في الوعظ والنصح فضلاً عن الهجر والضرب، وأقول : صرح كثير من المفسرين بوجوب هذا الترتيب في التأديب.

وجاء في تفسير القاسمي[1] الموسوم «محاسن التأويل» :

﴿**واللاتي تخافون نشوزهن**﴾ : أو عصيانهن وسوء عشرتهن وترفعهن عن مطاوعتكم، من «النشز» وهو ما ارتفع من الأرض. يقال : نشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها استعصت عليه، وارتفعت عليه وأبغضته، وخرجت عن طاعته . ﴿**فعظوهن**﴾ أي خوفوهن بالقول: كاتقي الله ، واعلمي أن طاعتك لي فرض عليك، واحذري عقاب الله في عصيانك. وذلك لأن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال .

﴿**واهجروهن**﴾ بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحة ﴿**في المضاجع**﴾ أي المراقد فلا تداخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن.. وقيل : المضاجع المبايت ، أي لا تبايتوهن، وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشري أنه قال : يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : «**أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت**» .

---

(١) جمال الدين القاسمي (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ - ١٩١٤ م) : مولده ووفاته في دمشق ، رحل إلى مصر وزار المدينة، ثم عاد إلى دمشق . الأعلام ٢ : ١٣٥ ، وحلية البشر ١ : ٤٣٥ - ٤٣٨ ، وقاموس الصناعات الشامية ١٩١ .

﴿واضربوهن﴾ : إن لم ينجع ما فعلتم من القطيعة والهجران ضربًا غير مبرح، أي لا شديد ولا شاق. قال الفقهاء: هو ألا يجرحها ولا يكسر لها عظمًا ولا يؤثر شيئًا ويتجنب الوجه لأنه مجمع المحاسن ويكون مفرقًا على بدنها ولا يوالي به في موضع واحد لئلا يعظم ضرره، ومنهم من قال : ينبغي أن يكون الضرب بمنديل ملفوف أو بيده. وقال عطاء : ضرب بالسواك .

﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي إذا رجعن عن النشوز عند هذا التأديب إلى الطاعة في جميع ما يراد منهن مما أباحه الله فلا سبيل للرجال عليهن بعد ذلك بالتوبيخ والأذية بالضرب والهجران.

﴿إن الله كان عليا كبيرا﴾ فاحذروه، تهديد للأزواج على ظلم النساء، فإنهن وإن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم فالله سبحانه كبير قاهر، قادر، ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. وقال الشيخ طنطاوي جوهري[1] في تفسيره «الجواهر» :

«والنساء على قسمين : صالحات مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج ، وعاصيات ناشزات لا يطعن أزواجهن. فالقسم الأول أمره معلوم. أما الفريق الثاني فابتدئوا بوعظه، فإن لم ينجع الوعظ فاهجروهن في المضاجع، ولا تبيتوا معهن ليلتين، فإن لم يتبن فاضربوهن ضربًا غير مبرح، وإياكم ومخالفة هذا الترتيب فالوعظ يتلوه الهجر، والهجر يتلوه الضرب، فمن أطاعت واعتدلت فانسوا ذنبها، ولا تذكروه ألبتة؛ لأن الله فوقكم كما أنكم فوق النساء مقامًا وقدرة، فإن تبن من الذنب فلا تعتدوا بما لكم من القدرة عليهن، والله أقدر عليكم من قدرتكم عليهن، وإن خفتم خلافًا بينهما فابعثوا رجلين يصلحان للحكم أحدهما من أهله والآخر من أهلها وهما أدرى بأحوالهما، ليوفقا بينهما، فهذا قوله تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** فهم كالولاة، والنساء كالرعية **﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾** بسبب تفضيله الرجال على النساء بما هو معلوم مما تقدم **﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾** كالمهر والنفقة، وهن قسمان: مطيعات، وعاصيات **﴿فالصالحات قانتات﴾** مطيعات لله **﴿حافظات للغيب﴾** يحفظن في غيبة أزواجهن ما يجب أن يحفظ في النفس والمال **﴿بما حفظ الله﴾** : أي بسبب حفظ الله لهن، حيث حثهن ورغبهن بالوعد، وأنذرهن، وخوفهن

---

(١) طنطاوي جوهري (١٢٨٧ - ١٣٥٨؟ هـ = ١٨٧٠ - ١٩٤٠ م) : ولد في قرية عوض الله حجازي ، من قرى الشرقية بمصر. وتوفي بالقاهرة . الأعلام ٣ : ٢٣٠ ، ومرآة العصر ٢ : ٢٢٥ ، والأعلام الشرقية ٢ : ١١٦ .

بالتهديد، ووفقهن لحفظ أسرار الزوج وللعفة ومراعاة ما يجب عليهن مراعاته في غيبته من أعراضهن وأموال الأزواج، فعنه عليه الصلاة والسلام: «**خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها**» وتلا الآية . فأما القسم الثاني وهن العاصيات ، فقال فيهن : ﴿**واللاتي تخافون نشوزهن**﴾ أي عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج ﴿**فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**﴾ بالتوبيخ والإيذاء ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ﴿**إن الله كان عليا كبرا**﴾ ، وهذه المعاني قد قدمناها هنا ، وقوله : ﴿**وإن خفتم شقاق بينهما**﴾ أي خلاف بين المرأة وزوجها وإضافة الشقاق إلى البين على حد قولهم: نهاره صائم، وليله قائم، والحكم: الوسط الذي يصلح للحكم والإصلاح. وكون الحكمين من أهله وأهلها أفضل، ولا يمنع أن يكونا من الأجانب، وإرسال الحكمين من قبل الحكام أو من قبل الزوجين، أو من صالحي الأمة، وللحكمين أن يجريا الخلع بلا إذن من الزوجين، إن رأيا الإصلاح فيه عند مالك، وعند غيره لا يملكان جمعًا ولا تفريقًا إلا بإذن الزوجين .

واعلم أن لإرادة الحكمين دخلا في تحقيق الصلح كما قال : ﴿**إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما**﴾ إن يرد الحكمان إصلاحًا يوفق الله بين الزوجين، أو بين الحكمين في إتمام الصلح. وليس للحاكم أن يبعث عدلين، ويجعلهما حكمين عند الشافعي. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئة من الناس، فقال : فعلام شأن هذين؟ قالوا: وقع بينهما شقاق. قال علي: «فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها» ثم قال للحكمين : «أتدريان ما عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما..؟» إلخ .. فاعجب للمسلمين في مصر والشام وكثير من بلاد الإسلام كيف غفلوا عن بعث الحكمين؟!!

وجاء في «ظلال القرآن» للإمام الشهيد سيد قطب[1] :

﴿.. **واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن**﴾ .. هذا هو الإجراء الأول .. الموعظة .. وهذا هو أول واجبات القَيِّم ورب الأسرة. عمل تهذيبي . مطلوب منه في كل حالة : ﴿**يأيها**

---

(١) سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٧ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٧ م) : من مواليد قرية (موشا) في أسيوط بمصر . الأعلام ٣ : ١٤٧ . وليلاحظ أنني لم أقصد الترجمة للمفسرين المذكورين في هذا الفصل، بل كل ما قصدت إليه هو ذكر عام المولد والوفاة، والأماكن التي حلوا بها .

الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة﴾ .. ولكنه في هذه الحالة بالذات، يتجه اتجاهًا معينًا لهدف معين هو علاج أعراض النشوز قبل أن تستفحل وتستعلن .

ولكن العظة قد لا تنفع ؛ لأن هناك هوى غالبًا ، أو انفعالاً جامحًا أو استعلاء بجمال. أو بمال.. أو بمركز عائلي.. أو بأي قيمة من القيم. تنسى الزوجة أنها شريكة في مؤسسة، وليست ندًا في صراع أو مجال افتخار!.. هنا يجيء الإجراء الثاني.. حركة استعلاء نفسية من الرجل على كل ما تُدِلّ به المرأة : من جمال ، وجاذبية، أو قيم أخرى، ترفع بها ذاتها عن ذاته، أو عن مكان الشريك في مؤسسة له عليها قوامة .

﴿واهجروهن في المضاجع﴾

والمضجع موضع الإغراء والجاذبية ، التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانها. فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها. وكانت – في الغالب – أميل إلى التراجع والملاينة، أمام هذا الصمود من رجلها، وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه، في أحرج مواضعها!.. على أن هناك أدبًا معينًا في هذا الإجراء.. إجراء الهجر في المضاجع.. وهو ألا يكون هجرًا ظاهرًا في غير مكان خلوة الزوجين. لا يكون هجرًا أمام الأطفال، يورث نفوسهم شرًا وفسادًا ..، ولا هجرًا أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزًا . فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة، ولا إفساد الأطفال!.. وكلا الهدفين يبدو أنه مقصود من هذا الإجراء.. ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح كذلك.. فهل تترك المؤسسة تتحطم؟ إن هناك إجراء – ولو أنه أعنف – ولكنه أهون وأصغر من تحطيم المؤسسة كلها بالنشوز .

﴿واضربوهن﴾

واستصحاب المعاني السابقة كلها ؛ واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيبًا للانتقام والتشفي، ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير، ويمنع أن يكون أيضًا للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها .. ويحدد أن يكون ضرب تأديب مصحوب بعاطفة المؤدب المربي، كما يزاوله الأب مع أبنائه وكما يزاوله المربي مع تلميذه.. ومعروف بالضرورة أن هذه الإجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة. وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصدع. فهي لا تكون إلا

وهناك انحراف مّا هو الذي تعالجه هذه الإجراءات . وحين لا تجدي الموعظة، ولا يجدي الهجر في المضاجع.. لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر، ومن مستوى آخر، لا تجدي فيه الوسائل الأخرى.. وقد تجدي فيه هذه الوسيلة. وشواهد الواقع ، والملاحظات النفسية ، على بعض أنواع الانحراف ، تقول : إن هذه الوسيلة تكون أنسب الوسائل لإشباع انحراف نفسي معين ، وإصلاح سلوك صاحبه.. وإرضائه .. في الوقت ذاته!.





العجز الجنسي وعلاجه

العجز الجنسي : هو ضعف الزوج وعدم قدرته على القيام بدوره في عملية الجماع كما يجب ، بسبب عجزه عن الحصول على الانتصاب المناسب.

وحتى نفهم معنى العجز أكثر من ذلك ، لا بد أن نعرف : كيف يحدث الانتصاب ؟

تذكر المعارف الحديثة أنه : يوجد في القضيب ثلاث قنوات انتصابية : قناتان تجويفيتان ، وقناة واحدة إسفنجية .

تمتد القناتان التجويفيتان بطول عضلة القضيب فوق القناة الإسفنجية وعلى جانبيها ، بينما تقع قناة مجرى البول في وسط القناة الإسفنجية .

يصبح العضو صلبًا عندما تصبح القنوات الثلاث - خصوصًا القناتان التجويفيتان - ممتلئة بالدم. ويصل الدم إلى القناتين عبر الشرايين الحوضية ، وينسحب عبر عروض الحوض أيضًا .

وعندما يكون الرجل هادئًا فإن القناتين تكونان ممتلئتين بكميات صغيرة من الدم، ولكن حينما يستثار جنسيًا تتدفق كميات متزايدة من الدم إلى القناتين .

ويعتمد التحكم في تدفق ا لدم إلى داخل وخارج العضو على نظام عصبي يؤدي وظائفه على أكمل وجه. وفي المخ توجد مراكز عصبية، كما توجد نفس المراكز في الحبل الشوكي، وهي تقوم جنبًا إلى جنب :لأعصاب ذاتية الحركة بتنظيم قطر أو فتحة الأوعية الدموية المؤدية إلى العضو والخارجة منه.

عندما يقوم النظام العصبي بإرسال إشاراته «السليمة» ينتفخ العضو ممتلئًا بالدم، فإذا حدث تشويش خارجي على إشارات المراكز العصبية يتشتت الانتباه، ويتقلص العضو، وعلى سبيل المثال - الرجل الذي يخون يكون من التشتت بحيث إن أية خبطة أو صوت باب - حتى في الشارع - يجعله يشعر بالخوف.. عندئذ

فالارتخاء أمر طبيعي .

والمشكلة الحقيقية : أن إرسال الإشارات - بمثابة رسائل تنبيه لمراكز الحس - هي في حد ذاتها مجموعة من النبضات العصبية الكهربية الكيميائية المعقدة ، ومن الصعب جدًا ، أن يخضعها الإنسان لإرادته وسيطرته الواعية .

ومعنى هذا أننا يمكن أن «نأمر» أيدينا بأن تمتد لتلتقط «كوبًا» من الماء فتطيع على الفور بلا إبطاء، ولكننا سوف نمضي ساعات متصلة في أوامر حازمة للعضو لكي ينتبه.. ومع ذلك لن تحدث أية استجابة .

إن استطعنا أن نسيطر على دقات القلب ، وجريان الدم، واللعاب، وتقلصات الأمعاء، وغير ذلك من العمليات الحيوية الداخلية، فيمكننا عندئذ أن نقول : إن من الممكن جدًا أن نسيطر على العضو وأعصابه.. إنها جميعًا واقعة تحت سيطرة الجهاز العصبي المستقل .

ومن المعلوم أن هناك تفاعلاً داخليًا مستمرًا بين عدد معين من الغدد داخل أجسامنا وبين النظام العصبي، ومن المعلوم أن الغدة النخامية، والخصيتين، والغدة الدرقية، والغدد الأدرينالية، كلها تعمل في تفاعل وترابط فيما بينها وبين الجهاز العصبي ، لدرجة أن أي خلل في إحداها يؤثر على باقي الغدد.

ولكن ليس من المعلوم على وجه الدقة كيف تحدث سلسلة التفاعلات والتأثيرات السابقة، وإن كان من المعلوم - على سبيل المثال - أن الخصيتين إذا فشلتا في «إنتاج» التيستيرون «هرمون معين تفرزه الخصيتان» فإن سلسلة التفاعلات الطبيعية على طول المسافة بين المخ والعضو ستتوقف. فالرجل الذي لا ينتج هذه الهرمونات تصاب رسائل التنبيه - الواردة من مراكز الهيبوثلامس في قاع المخ إلى العضو - بالإحباط ، وعندئذ نادرًا ما يحدث الانتصاب .

وملخص الأمر كله : أن النظرة، والكلمة واللمسة ، والعطر، وغيرها من وسائل الإثارة بدورها تنبه المراكز العصبية الموجودة في المخ والمسئولة عن الجنس. وهذه بدورها ترسل إشاراتها بطريقة فسيولوجية (وظيفية) إلى الغدد الجنسية المسئولة عن إفراز الهرمونات الجنسية لتفرغ دفعة منها في تيار الدم تلهب الغريزة الجنسية وتنبه العضو فيحدث الانتصاب. وأي خلل في أداء أي وظيفة من الوظائف يؤدي إلى الارتخاء والعجز.

وهناك نظريات متعددة تدور حول أسباب إخفاق الرجل في العملية الجنسية : منها -

عقدة أوديب كما يظن فرويــد . فالشــاب الذي لا يتجاوز هذه العقدة ويظل ملتصقًا بأمه ، لا بد أن يصاب بالعجز إذا ما دعته المرأة للمعاشرة .

ثم هنالك النظرية القائلة : إن العجز ليس إلا ستارًا يخفي روح العداء عند الرجل للمرأة . والعجز في هذه الحالة هو الحجة التي يلجأ إليها الرجل بطريقة لا شعورية لإلحاق الأذى بالمرأة. فمثل هؤلاء الرجال يرون أن المرأة عدو، وأن المعاشرة حرب . وتبعًا لهذه النظرية يصاب الرجل بالعجز من الخوف أن يهزم.

وهناك نظرية ترى أن العجز له جذور في مشاعر الإنسان الداخلية بعدم الأمان وعدم الكفاية. ولما كان الأداء الجنسي من أوائل أوجه النشاط عند الإنسان بعد البلوغ، فإن العجز يصبح طريقًا من الطرق التي يعبر بها من مشاعره القوية بالشك في قدراته .

ولكن هناك علماء آخرين لهم وجهة نظر مختلفة في تعليل سبب العجز . فمثلاً الدكتور وليم نولين يقول : إننا نضحك على أنفسنا إذا قلنا: إن الارتخاء سببه القلق والتوتر والمشاكل النفسية.. وإن علينا أن نواجه الحقيقة بشجاعة: إن السبب الحقيقي للعجز عضوي في ٥٠% من الحالات وأكثر، وأن - وهذا هو الأهم- من الممكن جدًا تقديم علاج ناجح للأسباب العضوية، لأن كثيرًا من الأمراض العضوية نستطيع أن نضع يدنا عليها.. على عكس الأمراض النفسية تمامًا.. فنحن معها نتعامل مع سراب ! .

وعلى كل حال فإن القضية الهامة ليست قضية سرد النظريات وإنما إيجاد العلاج .

يقول الدكتور وليم نولين : أول شيء يفعله المصاب - أن يذهب إلى طبيب متفتح وقارئ ومتابع لأحدث التطورات العلمية في العجز، وثاني شيء - أن يبتعد عن أطباء الغدد الصماء والمسالك البولية ونظريات العلاج الجنسي.. صحيح أنك قد تذهب إلى بعض هؤلاء أو كلهم جميعًا في مرحلة تالية كي تقوم بإجراء اختبارات التشخيص والعلاج أو التشخيص فقط.. ولكن موطن الخطر هنا والحذر أن كل واحد من هؤلاء قد ينحاز إلى تخصصه على حساب مرضك ، بينما المصاب في هذه الحالة الحساسة محتاج إلى الموضوعية الكاملة. وعلى الطبيب ، من ناحيته، أن يدرس تاريخ الحالة كاملاً ويقوم بفحص كامل لجسم المريض، وعليه أن يركز على التاريخ الجنسي للحالة محاولاً أن يحدد إذا ما كان الرجل مصابًا بالارتخاء أم لا .. وإذا ما كان العجز كاملاً أو جزئيًا !!.

وعلى المريض أن يحكي لطبيبه أدق التفاصيل.. يحكي له إذا كان يحدث له انتصاب ليلي أو صباحي.. فإن كان يحدث انتصاب صباحي فقط فهذا دليل على أن الحالة سببها نفسي محض وليس عضويًا بحال، ذلك أن العاجز الذي يرجع سبب مرضه لأسباب عضوية لا يمكن أن يحدث له انتصاب صباحي» .

ولكن إذا كانت الحالة العضوية سليمة تمامًا أو في حدود المعقول، فما العلاج وما الحل؟

في حالة سلامة الناحية العضوية ، فهذا يعني أن العجز نفساني، وأهم مسببات العجز النفسي هي : التوتر، والقلق، وعدم الثقة بالنفس، والخوف من الفشل، ولكن ما هي المؤشرات التي تدل على التوتر والخوف والقلق؟

هناك علامات فسيولوجية تدل على ذلك يمكن تحديدها في الآتي :

- إحساس بشد وتوتر في عضلات الرقبة والكتفين، كأنما يحمل الإنسان ثقلا على رأسه.
- إحساس بانقباض في المعدة وفقد الشهية .
- عرق .. خاصة بالكفين .
- جذ على النواجذ وتوتر في عضلات القلب .

أما ما يظهر القلق ويطفو به على السطح ، فهي الأفكار الشخصية والهواجس.. أو هل سيبقى الانتصاب مستمرًا فترة كافية؟.. أو هل ستعجبها مقدرتي؟.. أو هل سيحدث تأخر في القذف أو سيحدث قذف سريع ؟

إذا مرت في خاطرك هذه الأسئلة. أو إذا أحسست بالأعراض المذكورة فأنت متوتر وقلق.

ولكن ما العلاج إذن ؟

هناك عدة نصائح أولية يجب اتباعها قبل علاقة جنسية يراد لها النجاح :

١ - لا داعي للجنس المنظم .. أي المحدد له مواعيد ومواقيت ثابتة «ليلة الجمعة مثلاً أو ليلة الأحد» فأنت لست ماكينة تدار في مواعيد محددة، بل إنسان له شعور وإحساسات متباينة من لحظة لأخرى.

٢ - لا تأت بمشاكل العمل والوظيفة اليومية معك إلى المنزل وتحاول القيام بعلاقة جنسية بنصف بال.

٣ – حاول مزاولة أي نوع من التسلية أو الاسترخاء كألعاب المنزل مع الزوجة والأطفال، أو الاسترخاء أمام التليفزيون، أو سماع الموسيقى .

٤ – لا تبدأ علاقة جنسية لا تحس برغبة جارفة لها أو في ظروف غير مناسبة تمامًا ، من حيث العزلة الكافية والسرية المطلوبة .

٥ – حاول السيطرة على الشد والتوتر العصبي الموجودين داخل نفسك وجسمك .

وأحسن طريقة هي التركيز بالتدريج على أعضاء الجسم عضوًا عضوًا ومحاولة الاسترخاء تدريجيًا أي بالتقسيط، مثلاً يمكنك التركيز على الرقبة أو الكتفين ثم محاولة استرخاء عضلاتها، ثم التركيز على البطن والصدر ومحاولة استرخاء عضلاتها، ثم اليدين والقدمين والفخذين وهكذا.. حتى يتم السيطرة على الجسم كله.. وقد يبدو الأمر صعبًا في أول الأمر ولكن بالمحاولة الجدية والمستمرة يومًا بعد يوم سيصبح سهلاً أن يسترخي الجسم عند الطلب، فإذا حدثت محاولة جنسية بعد ذلك وبناء على رغبة ملحة ، فهل سيكون النجاح أكيدًا ؟ وهل سيستطيع هذا الرجل أن يسترد بالكامل صحته الجنسية؟

نعم .. ولكن إذا هيأت له الظروف وسيلة العلاج الصحيح على يد امرأة تحبه .

يقول الدكتور فيليب ويلسون مدير مركز نيويورك لعدم الكفاية الجنسية: إنه مهما تكن الأسباب العميقة للعجز الجنسي، فإن هناك شيئًا واحدًا نعرفه : إن الرجل العاجز يشعر بالقلق من أداء العمل الجنسي ربما كان القلق مرده إلى الإحساس بالغضب وقد يكون الغضب عائدًا إلى الخوف من الضعف ذاته ، ولكن السؤال الهام هو :

ما الذي يمكن عمله للتخفيف من حدة العجز الجنسي ؟

إن هذا السؤال يجب أن تطرحه المرأة كما يطرحه الرجل عندما يعجز عن المباشرة .

إن هناك أخطاء كثيرة ترتكبها المرأة تساعد على ضعف زوجها الجنسي .

قد تعتقد المرأة أن مكانتها الذاتية مرهونة كلها بحسن أداء زوجها معها في الفراش. فإذا كان الرجل عاجزًا تضاعف عجزه ويضطر إلى هجر الجنس أشهر طويلة خشية أن يكون الإخفاق نصيبه، وخوفًا من أن تصاب زوجته بنكسة تظن معها أنها ليست جذابة ولا تستطيع اجتذاب رجلها .

وإذا كانت هناك نساء يرين أن مشكلة الزوج هي مشكلتهن أيضًا فهناك نساء لا يرين في

عجز الرجل أية مشكلة على الإطلاق. وهذا أمر لا يقل سوءاً عن سابقه لا سيما إذا عرف الزوج أن قول زوجته هذا إنما تقصد منه أن ترضي نفسها وكفى .

إن ما يحتاج إليه الرجل العاجز من زوجته هو قدرتها على استمرار التخاطب والتواصل تحت أي الظروف وبصورة طبيعية ؛ لأن ذلك يزيد من ثقة الرجل بزوجته وبنفسه .

الطريقة الثانية : هي أن يحصل الرجل ، بمساعدة المرأة بالطبع ، على فرصة أن يفكر بالجنس ويشعر به بدون أن ينصرف تفكيره إلى الأداء قبل كل شيء ، يجب أن ينصرف تفكير الرجل عن الشعور بالقلق، إلى الشعور بالاسترخاء والراحة. ولتكن عملية التدرب على ذلك على درجات وعلى أيام متوالية، تبدأ بالمداعبات في أحد الأيام .

وتزداد المداعبة وتتشعب ويخلق جو الاسترخاء الذي لا بد أن يؤدي إلى الانتصاب والأداء الطبيعي.

ويؤكد الدكتور فريدريك كهن على أهمية دور المرأة في علاج العجز الجنسي الناتج عن أسباب نفسية عند الرجل، فيقول : إذا كانت القضية تتناول عجزًا نفسانيًا أو عابرًا لا نجد له أفضل من امرأة محبة عاشقة تداويه بالملاطفات الحارة المتنوعة وبالتشجيع والهيام .

على المرأة حين يصاب زوجها باضطراب في القوى الجنسية أن تتساءل إذا كانت هي المسئولة عن ذلك، وأن تحاول بكل ما أوتيت من جهد لتنجي سعادتهما من ورطتها! فتتفحص أصل السبب تمامًا كما يفعل الطبيب الحاذق. فإذا اتفق ورأت أن القضية تعود لإفراط في الجماع، عليها أن تباعد بين الفترة والأخرى. أو إذا لاحظت أن السبب يعود لانهماك زوجها في مشكلة ما، فبدلا من أن تظهر غيرتها - شأن بعض الحمقاوات - عليها أن تضحي بشوط من متعتها، ريثما تعود المياه إلى مجاريها، فتعود وتوقد نار الشوق في قلبه دون أن يشعر ، لاجئة بين الفينة والفينة إلى مرآتها محاولة إضفاء فيض من الجاذبية على شخصيتها، رافلة بأثواب جديدة ، مبدلة تسريحات شعرها وعطرها . أضف إلى ذلك عنايتها بغذائه وذلك بتزويد المائدة ببعض التوابل والأسماك والعجة واللحم والأجبان الدسمة والبيض واللوز.. ، كما تبالغ في تجميل البيت وترديد عبارات التحبب والغزل .

وعلى المرأة أن تتصرف بكياسة بالغة في أثناء الجماع، لأن العجز هو اضطراب يجرح كثيرًا شعور الزوج. فإذا كانت تحب زوجها حبًا صادقًا وتأمل التمتع برجولته فترة أطول،

عليها أن تبذل كل ما أوتيت من جهد لمعالجته، فتزيل كل عقبة تضعه أمام حالته هذه ، وتضفي عليه فيضًا من الحب والعطف والدراية. ومن يهزأ بشخص مصاب بالعجز، يشبه رجلاً فظًا يضرب واحدًا أوشك على الغرق، بدلاً من أن يرمي له بحبل النجاة. فعليها إذن أن تتجاهل كل ظاهرة تدل على عجز زوجها إبان المغازلات وتلجأ إلى «دبلوماسية» النساء، فتحول المغازلات إلى مزاح بريء ثم تقول له : «يلوح لي أنني لست على استعداد لتقبل الحب اليوم، فأرجو أن تكون لك ذات النية!» وبعدها تتابع معه المزاح و المداعبة دون أن تضطره للجماع. وفي أغلب الأحيان تعطي نباهة المرأة نتيجة سريعة، فتنبعث قدرة الرجل فجأة بفضل المزاح الذي حرره من اضطرابه .

سرعة القذف وعلاجها

تعد سرعة القذف حالة من حالات عدم الكفاية الجنسية ، وهي حالة يحدث فيها القذف أو الإنزال قبل أوانه، أي قبل أن يريد الرجل ذلك، أو قبل أن يفي بمتطلبات زوجته .

ويقسم القذف غير الطبيعي إلى ثلاثة أنواع :

– القذف السريع : وهو حدوث القذف أو الإنزال بعد الدخول في المهبل في وقت أقل من المعتاد .

– القذف المبكر : وهو حدوث القذف بمجرد ملامسة العضو لفرج المرأة .

– القذف المبكر جدًا : وهو يحدث بمجرد تفكير الرجل في العملية الجنسية ، أو عند المداعبة والتقبيل.

أمّا عن أسباب سرعة القذف فهي تنقسم إلى :

– أسباب نفسية : مثل التوتر ، والقلق ، والاضطراب العصبي، والخوف من الفشل في العملية الجنسية. وهذه الأسباب قد عرضتها بشيء من التفصيل في معرض الحديث – سابقًا – عن العجز الجنسي.

– أسباب عضوية : مثل شدة حساسية أعصاب رأس القضيب ، وأي احتكاك به قد يؤدي إلى الانتصاب والقذف، والاختلاف في إفرازات الغدد الصماء، والتهاب أو احتقان البروستاتا أو الحويصلات المنوية أو مجرى البول الخلفي، كذلك وجود أورام التهابية في

مجرى البول الخلفي والتقرحات في هذه الأماكن .

هذا عن أنواع القذف غير الطبيعي أو السريع ، وأسبابه النفسية والعضوية ، أما العلاج فيجب الالتجاء فورًا إلى طبيب من أهل العلم والاختصاص ، وحذار من الأخذ بتوجيهات الأصدقاء أو الزملاء المتحذلقين في مثل هذه الأمور ، لأن هذا قد يؤدي إلى نتائج مضادة تمامًا.

ولقد وقفت على بحث في مجلة «طبيبك» فحواه : أن القذف المبكر هو أكثر المشاكل الجنسية شيوعًا بين الرجال ، وهو من أعظم أسباب الشقاء في الحياة الزوجية .

إن معظم حالات القذف المبكر ناشئ عن ازدياد حساسية الجهاز الجنسي المبكر.. قد تكون الحساسية الشديدة جسدية، وعندها تحدث الرعشة بمجرد الاتصال. وقد تكون عاطفية ، فالرجل الممعن في عاطفته، والرجل الذي يعاني شيئًا يسيرًا، من القلق فيما يتعلق بأمور الجنس ، كلاهما قد يكون غير قادر على تحمل عنفوان الإثارة الجنسية العنيفة إلا فترة زهيدة .

إن الشباب الحديث السن الذي يقذف قذفًا مبكرًا بسبب الإثارة العنيفة ، لا يعاني مشكلة حقيقية نظرًا لأنه يستطيع أن يعيد الكرة بعد فترة وجيزة ، والمعاشرة الثانية تستمر فترة أطول بصورة عامة .

أما بالنسبة لغيره من الرجال فالسعي مستمر في سبيل إيجاد الحلول .

وقد كانت المراهم المخدرة مفيدة بالنسبة لبعض الرجال ، إذ يدهن العضو المذكر بها قبل المباشرة فيصبح أقل حساسية وقادرًا على تحمل الاحتكاك الطويل .

وقد اكتشف الدكتور جيمس أحد أساتذة الطب في جامعة ديوك طريقة لمعالجة سرعة الإنزال، وهي تتطلب من الزوجة أن تحرك الذكر بيدها حتى يتولد الإحساس عند الزوج بقرب حدوث القذف، فيشير إلى زوجته بأن تتوقف. وعندما يزول الإحساس تعيد الزوجة الكرة ويتكرر التوقف بإشارة من الزوج.

إن تكرار هذه العملية يولد في نفس الزوج شكلاً معينًا من الاستجابة الجنسية تصبح الإثارة فيه أمرًا يمكن تحمله، ويصبح لديه عادة في ضبط نفسه ، وبذلك يتأخر القذف، وسرعان ما يجد نفسه قادرًا على تأخير القذف حسب رغبته .

وينصح بعض الأطباء بدهن عضو الرجل بمرهم ترونوفال من أجل تبليد الحساسية وإطالة مدة الاتصال والجماع .

وينصح البعض الرجلَ بمسح أو غسل عضوه بالماء البارد أثناء المداعبة من حين إلى آخر حتى يتأخر الإنزال .

ماذا عند عدم حدوث القذف ؟

إذا كنّا فيما سبق قد رأينا بعض الحالات التي يحدث فيها قذف سريع أو مبكر، فإن هناك حالات أخرى مضادة تشتكي من عدم حدوث القذف حتى تنتهي العملية الجنسية .

وهذه الحالة تمثل شكلاً من أشكال الضعف الجنسي ، وقد يكون السبب فيها بعض الاضطرابات العصبية والنفسية ، أو بسبب تناول أنواع معينة من الأدوية ، مثل بعض العقاقير التي تستخدم في علاج بعض حالات الأمراض العصبية أو حالات ارتفاع ضغط الدم، وفي بعض الحالات يكون بسبب استئصال البروستاتا .

وعلاج هذا النوع من الضعف الجنسي يتفق في معالمه مع علاج العجز الجنسي الذي عرضت له سابقًا.

البرود الجنسي

البرود الجنسي : هو حالة تكون فيها المرأة فاقدة للحساسية الجنسية ، وعاجزة عن أداء دورها الطبيعي في عملية الجماع . وحالتها هذه تشبه حالة عجز الرجل ، في كون الدم لا يملأ أعضاءها الجنسية، وامتناع الأوعية الانتصابية عن التصلب، كما يظل بظرها كامنًا .. وغددها لا تفرز ومدخل المهبل جافًا . غير أنها تختلف عن الرجل في أنها تستطيع أن تشارك في العملية الجنسية ، ولكن بطريقة آلية خالية تمامًا من الفعالية والإيجابية .

وللعلماء آراء مختلفة في أسباب البرود : فمنهم من يرى أن سببه دافع خفي، كظن المرأة (نتيجة للتربية السيئة) أن الجنس خطيئة ، ولو كان بطريقة مشروعة، ومن العلماء من يرى أن خوف المرأة من الحمل له تأثير في إيجاده ، وقد يكون بسبب خلل في الوظائف الجنسية، وقد يكون السبب هذه الأسباب مجتمعة أو غيرها .

وعلى كل حال ، فهي تشبه الأسباب التي تؤدي إلى عجز الرجل، ولذا فإن أساليب

العلاج متشابهة إلى حدّ كبير .

فعلى الزوج - وهو الذي عليه العبء الأكبر في علاج زوجته - أن يدرس سمات وخصائص أعضاء زوجته، طبعًا بطريقة مناسبة ولبقة، حتى يستطيع التمكن من معرفة المواضع الحساسة فيها واستثارتها، لأنه في الغالب لا توجد امرأة تفقد حساسيتها تمامًا ، وكل ما في الأمر أن المرأة المصابة عادةً لم تكتشف بعد طريقة استثارتها .

ولقد وضع السيد مرتضى الحسيني الزبيدي حلاً وعلاجًا عمليين لبرود المرأة في كتابه «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» (للغزالي] فقال :

«إذا كان الزوج سريع الإنزال والزوجة بطيئة ، فعليه أن يطيل مداعبتها على الفراش، ويكثر من التزامها «حضنها» ، ومص شفتيها، والعبث بثدييها، وتحسس أليتها، وأعلى ظهرها، وجنبيها، فإذا بدا عليها التغير دلك بظرها برأس ذكره الهويني، ويستمر على هذه الحالة دون إيلاج، فإذا ارتعدت وتغير لونها ، وتقلص وجهها ، والتزمته ، أولجه رويدًا رويدًا حتى يصل إلى الآخر ، ويحركه داخلها بشدة دون إخراج، فإنه لا توجد امرأة بطيئة إلا أنزلت في هذه اللحظة ..» .

هذا ما قاله مرتضى الحسيني الزبيدي ، وهو يتفق مع المعارف الحديثة ، إذ جاء بحث طريف في مجلة «طبيبك» تحت عنوان: «زناد الارتعاش عند المرأة» وتعني بذلك «البظر» وهو القسم الزائد من الفرج، ويقابل القضيب عند الرجل. وهو عضو غني بالأعصاب،وله شبكة دقيقة من الأوعية الدموية الدقيقة إذا أثيرت باللمس أو التهييج الجنسي امتلأت بالدم وانتفخ البظر..

والبظر نقطة مركزية لإثارة المرأة من الناحية الجنسية ووصولها إلى رعشة الجماع.. وما دام البظر على مثل هذه الأهمية في حياة المرأة ، فعلى كل رجل أن يحرز معرفة تامة بالدور الذي يلعبه البظر ، وأن يتقن فنون إثارته أثناء المداعبة التي تسبق عملية الجماع ، فلا بد من الاهتمام بالبظر قبل الإيلاج لتستكمل المرأة شبقها .

إثارة البظر يجب أن تكون بكل لطف ! لأن هذا العضو حساس جدًا إلى درجة يكاد لا يصدقها العقل.

إن معظم النساء الطبيعيات يرحبن بمداعبة البظر قبل الجماع ، وقد يكون من المستحب

استئناف مداعبة البظر عقب الجماع لاستكمال اللذة عند المرأة ، إذ ربما لا تكون قد استنفدت لذتها. ويحدث أحيانًا أن يسبق الرجل فيقذف وتبقى المرأة شبقة متهيجة - فيتركها الرجل وحالها تعاني توترًا في الأعصاب كما يفعل كثيرون من الأزواج القساة!

نداء إلى مثل هؤلاء أن يتريثوا حتى تقضي الزوجة حاجتها وتهدأ ، فقد قال ﷺ : «**إذا جامع أحدكم أهله (أي زوجته) فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يُعجلْها حتى تقضي حاجتها**»[1] .

وعلاج البرود عند المرأة لا يقع كل أعبائه على الرجل فحسب، بل للمرأة ذاتها دور هام وحيوي. يقول الدكتور فريدريك كهن : وعلى المرأة أيضًا أن تعتبر المتعة المشتركة هي المسألة الرئيسية التي تستحق الاهتمام. فتجتهد في أن تكون تلميذة مطيعة، لكي تصبح في المستقبل أستاذة عالمية في الحب!.

ولا شيء أضمن للسعادة الزوجية ولا آمن على رجولة وإخلاص الزوج، غير خبرة الزوجة في فن الحب. والوفاق الذي يتم في الليل نادرًا ما تزول سعادته في وضح النهار، لذلك على المرأة أن تذعن وتصبر بسهولة، وأن تزيل الحواجز التي حصنتها في صغرها ، وأن تستسلم لكل الهياجات الجنسية التي ترافق الحياة الزوجية ، دون أن تنسى أن الأجهزة العصبية لا تقوم بوظائفها فورًا ما دامت كانت راقدة قبل الزواج ، بل إنها تنشط وتزداد حساسية مقتربة من الهدف كلما تكرر الجماع، وعليها أن تكتشف الأوضاع والهياجات التي تثيرها أكثر من سواها، وأن تحاول التمرن على انقباضات المهبل وألعابه الموزونة كي تسهل الرعشة الكبرى .

وقد لا تنجح التجارب الأولى ، غير أن الممارسة المستمرة ستحسن النتيجة بالتدريج ؛ فتزداد سرعة رعشتها، ويأتي يوم تشرق فيه السعادة على البيت الزوجي ، إذ تجد المرأة نفسها موازية لشهوة الرجل وسائرة معه جنبًا إلى جنب .. ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢١﴾﴾ [النساء : ٢١] .

(١) لعبد الرزاق في الجامع ولأبي يعلي في مسنده عن أنس. وجاء الحديث بألفاظ مختلفة في روايات أخرى .



الملجأ الأخير...

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

العلاقة بين الزوجين تقوم على ثلاثة مقومات أساسية: السكن.. والمودة.. والرحمة. فإذا انتفى أحد هذه المقومات، ينصح المنهج الإسلامي الحكيم بإجراء وجيه، حتى لا تتمزق بقية الخيوط التي لا تزال مربوطة:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩].

وقال عليه السلام في الصحيحين: **«لا يفرك – لا يكره – مؤمن مؤمنة. إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»**.

ولكن ما الملجأ عندما تذهب معاني السكن والمودة والرحمة من النفوس بالكلية، وتحل محلها معانٍ مضادة تمامًا؟

ما الملجأ عندما تذهب لمحات البشاشة وتحل محلها لمحات العبوس؟

ما الملجأ عندما يصبح الشقاق مذاقًا في كل حين مع أذواق المأكل والمشرب والملبس؟

ما الملجأ الذي فيه الخلاص من هذه الحياة الكئيبة المفعمة بالكراهية والنفور والتباين في الطبائع والأمزجة؟

إن الإسلام حريص كل الحرص على مؤسسة الأسرة ويأبى إلا أن تستمر استمرارًا ينعم فيه أفرادها بالهدوء والاستقرار والسعادة. ولقد رأينا فيما سبق بعض مظاهر هذا الحرص من خلال الإجراءات التي وضعها الإسلام وطالب باتخاذها في حالة نشوز الزوجة وفي حالة نشوز الزوج.

كما رأينا قبل ذلك كيف خطط الإسلام للحياة الزوجية تخطيطًا يقيها بوادر الشقاق والكراهية والمشاكل.

ولكن ما الملجأ عندما لا تجدي كل هذه الإجراءات والخطط في حياة زوجين من الأزواج؟ **إنه الطلاق ..**

إن الإسلام عندما يفتح الباب للانفصال .. لا يفتحه كما تفتحه روسيا والولايات المتحدة ومعظم الدول الغربية، بحيث يكون البناء الأسري هشًا غير متماسك ، فيتصدع وينهار عند أي خلاف أو خصومة. كما أنه لا يقفل الباب أمام الزوجين كما تفعل المسيحية والهندوسية، بحيث لا يستطيع الزوجان الانفصال مهما كانت دواعيه قوية ضرورية، فيعيش الزوجان معًا حياة كُتِبَ عليها الشقاء، ولا فرار!

إن الإسلام لا يفتح الباب للانفصال على الإطلاق ولا يقفله على الإطلاق.. إنما هو فقط يراعي الظروف ويتماشى مع المصالح والمقتضيات فقد يكون الطلاق واجبًا ، وقد يكون محرمًا ، وقد يكون مباحًا ، وقد يكون مندوبًا إليه. وهذا هو تفصيل علماء الحنابلة وهو أرجح الآراء: فأما الطلاق الواجب فهو طلاق الحكمين في الشقاق بين الزوجين، إذا رأيا أن الطلاق هو الوسيلة لقطع الشقاق.

وكذلك طلاق المولى بعد التربص مدة أربعة أشهر لقول الله تعالى :

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦ - ٢٢٧] .

وأما الطلاق المحرم : فهو الطلاق من غير حاجة إليه ، وإنما كان حرامًا ، لأنه ضرر بنفس الزوج، وضرر بزوجته، وإعدام للمصلحة الحاصلة لهما من غير حاجة إليه. فكان حرامًا مثل إتلاف المال، ولقول الرسول ﷺ : **«لا ضرر ولا ضرار»**[١] .

وفي رواية أخرى أن هذا النوع من الطلاق مكروه لقول النبي ﷺ : **«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»**[٢] وفي لفظ : **«ما أحل الله شيئًا أبغض إليه من الطلاق»**[٣] . وإنما يكون مبغوضًا من غير حاجة إليه - وقد سماه النبي ﷺ حلالاً - ولأنه مزيل للنكاح المشتمل على المصالح المندوب إليها، فيكون مكروهًا .

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة . حديث حسن .
(٢) رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم في مستدركه . حديث صحيح .
(٣) لأبي داود عن محارب بن دثار مرسلاً ، والحاكم في مستدركه عن ابن عمر . حديث حسن .

وأما الطلاق المباح : فإنما يكون عند الحاجة إليه ، لسوء خلق المرأة ، وسوء عشرتها، والتضرر بها ، من غير حصول الغرض منها .

وأما المندوب إليه : فهو الطلاق الذي يكون عند تفريط المرأة في حقوق الله الواجبة عليها، مثل الصلاة ونحوها، ولا يمكنه إجبارها عليها - أو تكون غير عفيفة .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : لا ينبغي له إمساكها ، وذلك لأن فيه نقصًا لدينه، ولا يأمن إفسادها لفراشه، وإلحاقها به ولدًا ليس هو منه، ولا بأس بالتضييق عليها في هذه الحال، لتفتدي منه ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ ﴿١٩﴾﴾ [النساء : ١٩] .

قال ابن قدامة : ويحتمل أن الطلاق في هذين الموضعين واجب .

قال : ومن المندوب إليه ، الطلاق في حال الشقاق ، وفي الحال التي تخرج المرأة إلى المخالعة لتزيل عنها الضرر»[١] .

هذا هو حكم الطلاق على التفصيل المستند إلى القرآن والسنة.. وهو رأي وجيه يراعي الظروف ويتماشى مع مصلحة الزوجين إلى أبعد الحدود .. فلا يفتح باب الطلاق على مصراعيه ولا يسده سدًا محكمًا . ولقد وضع الإسلام شروطًا للطلاق بحيث لو نفذت على وجهها ما كان هناك طلاق إلا حيث الحاجة والضرورة .

الشرط الأول : هو أن يطلق الزوج زوجته المدخول بها طلقة واحدة رجعية ، وللزوج أن يرد زوجته المطلقة إليه، طوال فترة العدة ، وهي ثلاث حيضات (أي حوالي ثلاثة أشهر في العادة) . وذلك حتى تكون هناك فرصة كافية للتفكير والتدبر، وحتى تهدأ النفوس وتزول الانفعالات، وعسى أن تتبدل القلوب وتلوح في الأفق سحابة الإصلاح وتعود الحياة الزوجية مرة أخرى، فإذا مرت هذه الفترة .. فترة العدة.. دون أن يراجعها ، فليفارقها بمعروف .

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

---

(١) راجع المغني لابن قدامة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴿٢﴾﴾ [الطلاق : ١-٢] .

الشرط الثاني : أن لا يطلق الزوج زوجته المدخول بها في فترة الحيض ، ولا يطلقها في طهر قد جامعها فيه، إنما يطلقها في طهر لم يقع فيه جماع .

لقول الله تعالى : ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴿١﴾﴾ [الطلاق : ١] .

والمعنى إذا أردتم تطليق النساء وعزمتم عليه ، فطلقوهن مستقبلات العدة ، وذلك لا يكون إلا إذا طلقت المرأة في الطهر لتكون أول حيضة تستقبلها قرءاً محسوبًا من الأقراء الثلاثة والمراد أن يطلقن في طهرن لم يقع فيه جماع، ثم يخلين حتى تنقض عدتهن. عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ ، فتغيظ منه رسول الله ﷺ ، ثم قال : **«مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»** . [رواه البخاري ومسلم] .

هذا هو الشرط الثاني حتى يكون الطلاق صحيحًا ، وهو شرط له حكمة عالية ، لسببين :

١ - يحدث للمرأة أثناء فترة الحيض كثير من التغيرات الجسمية والنفسية ، مما يكون له أبلغ الأثر في تصرفاتها وسلوكها، وقد يصدر منها بعض الأفعال وردود الأفعال التي لا ترضى عنها حين تتطهر من الحيض. ولقد نظر المنهج الإسلامي الحكيم بعين الاعتبار لهذه التغيرات التي تعتري المرأة أثناء فترة الحيض، فحظر على الرجل طلاق زوجته في أثنائها؛ لأنه يكون ذلك نتيجة انفعال وقتي تحت تأثير هذه الفترة المعينة .

٢ - في أثناء فترة الحيض لا يتم اللقاء الجنسي بين الزوجين ، مما قد يكون له تأثير سلبي في نظرة الزوج إلى زوجته. ومن المنتظر بعد انتهاء هذه الفترة أن يتم اللقاء فيعود الود والانسجام. أما إذا جاء طهر ولم يجامعها فيه ، ورغب في الانفصال ، فهذا دليل على أن هذه الرغبة ليست تحت تأثير فترة الحيض .

فلا بد من توافر هذين الشرطين حتى يكون الطلاق متفقًا مع المنهج الإسلامي ، والطلاق

المخالف لهذين الشرطين أو أحدهما طلاق غير مشروع، ويسمى في الفقه الإسلامي بالطلاق البدعي .

وهذا الطلاق البدعي المخالف لقواعد المنهج الإسلامي ، قد اتفق الفقهاء على أنه حرام ، وأن فاعله يكون آثمًا .

ولكن هل يقع هذا النوع من الطلاق ؟

قال جمهور الفقهاء ، وفيهم الأئمة الأربعة ، بوقوعه .

ولكن ذهب جمع من العلماء المحققين إلى أن هذا الطلاق لا يقع ، ومنهم : فقهاء الشيعة، وابن علية من السلف ، وعبد الله بن عمر ، وسعيد بن المسيب ، وطاوس ، وخلاس بن عمر، وأبو قلابة من التابعين ، وهو اختيار الإمام ابن عقيل من أئمة الحنابلة وأئمة آل البيت ، والظاهرية ، وأحد الوجهين في مذهب الإمام أحمد ، وابن تيمية ، وابن حزم ، وابن القيم .

واحتجوا رحمهم الله على مذهبهم بالآثار وأقوال الصحابة والتابعين .

وبناء على هذا الرأي الأخير يكون أي طلاق مخالف لقواعد السنة غير واقع ، فلا يقع الطلاق على المدخول بها في الحالات الآتية :

١ – لا يقع الطلاق في أثناء الحيض .

٢ – لا يقع الطلاق في أثناء النفاس .

٣ – لا يقع الطلاق في أثناء طهر قد دخل بها فيه .

٤ – لا يقع الطلاق المقترن بالعدد إلا طلقة واحدة . فإذا قال الزوج لزوجته : أنت طالق بالثلاث ، لا يقع إلا طلقة واحدة .

وهكذا نرى أن المنهج الإسلامي لم يدع مسلكًا من المسالك يمكن أن يفيد في استمرار الحياة الزوجية إلا وقد سلكه، وذلك لأن مؤسسة الأسرة عزيزة على الإسلام بقدر أهميتها ودروها الحيوي في بناء المجتمع الإنساني .

وحين يقع الطلاق باعتباره الملجأ الأخير للقضاء على حياة كئيبة منغصة – فإن الإسلام تكفل بوضع التشريعات اللازمة لتحقيق مصالح الزوجة المطلقة وحقوقها ، ومن هذه الحقوق:

للزوجة المطلقة أن تبقى في دار مطلقها ، مع الإنفاق عليها ، طوال فترة العدة، لا يحق له

أن يخرجها، وليس لها أن تخرج إلا إذا اقترفت فاحشة مبينة يتعذر معها أن تظل في منزل زوجها ، كالبذاءة على الزوج وأهله ، فيحل حينئذ إخراجها لبذاءتها وسوء خلقها .

وبقاء الزوجة المطلقة في دار زوجها في أثناء العدة يعطي متسعًا خصبًا للتفكير والتروي، فقد تتبدل القلوب، وتلوح في الأفق سحابة الإصلاح، وتعود الحياة الزوجية مرة أخرى .

فإذا أوشكت مدة العدة على الانتهاء ، فللزوج أن يرجع زوجته إليه ، وإلا فليفارقها بالمعروف ويوفيها جميع حقوقها .

وإن كانت المطلقة حاملاً ، فيجب عليه أن ينفق عليها إلى أن تضع حملها، فعند ذلك تسقط النفقة لخروجها من العدة ، ولا فرق في هذا بين الرجعية والبائن . أما إذا كانت المطلقة غير حامل ، فإن كان طلاقها رجعيًا فقد وجب لها السكن والنفقة بإجماع العلماء ، وإن كان طلاقها بائناً وجب لها السكن والنفقة عند الإمام أبي حنيفة، ويجب لها السكن فقط عند الإمامين : مالك والشافعي . فإذا ولدت ووافقت على إرضاع ولدها ، فيجب على الرجل الإنفاق عليها على حسب وسعه وطاقته :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴿٢﴾﴾ [الطلاق : ١-٢] .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق : ٦ : ٧].

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ويجب على الزوج أن يعطي زوجته المطلقة المتعة ، وهي كل ما يعطيه لها تطييبًا لخاطرها وتخفيفًا من وقع الطلاق عليها، سواء كان مالاً أو كسوةً أو خلافه :

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب : ٤٩] .

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة : ٢٤١] .

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة : ٢٣٦] .

وللزوجة أن تستوفي صداقها كاملاً ، لا يحل للزوج شيء منه ما دامت كانت النفرة من جانبه:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء : ٢٠ - ٢١] .

وإذا وقع الطلاق قبل الدخول ، ولم يكن قد حُدّدَ المهر ، فقد وجبت لها المتعة ، وهي هنا قائمة مقام نصف مهر مثيلاتها على حسب حال الزوج :

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة : ٢٢٦] .

وأما إذا كان الطلاق قبل الدخول وقد حدد المهر ، فللمطلقة نصفه ، إلا إذا تنازلت ، أو أراد الزوج أن يعطيها المهر كاملاً :

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

ولا يكاد يأتي تشريع الطلاق في آية من الآيات إلا وتأتي معه الأوامر بسلوك سبيل المعروف والإحسان، والتوصية بعدم نسيان ما كان بين الزوجين من مشاعر طيبة وإفضاءات جميلة ، فمثلاً:

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب : ٤٩] .

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة : ٢٣١] .

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢١﴾﴾ [النساء : ٢١] .

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وإذا كانت الأشياء لا تتميز إلا بأضدادها، فإنه لا يمكن أن نتبين قيمة تشريع الطلاق في الإسلام إلا بالتعرف على تشريعات التيارات المضادة .

الطلاق في الجاهلية :

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا راجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة مرة أو أكثر ، حتى قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك أبدًا ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك ، فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة ، فأخبرتها فسكتت حتى جاء النبي ﷺ ، فأخبرته ، فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن :

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً ، من كان طلق ، ومن لم يكن طلق .

الطلاق عند اليهود :

ذكر صاحب نداء للجنس اللطيف أن :

«الذي دون في الشريعة عند اليهود وجرى عليه العمل أن الطلاق يباح بغير عذر، كرغبة الرجل بالتزوج بأجمل من امرأته ، ولكنه لا يحسن بدون عذر ، والأعذار عندهم قسمان :

١ - عيوب الخلقة ، ومنها : العمشُ ، والحَوَل ، والبخر ، والحدَب ، والعَرج ، والعُقْم .

٢ - عيوب الأخلاق : وذكروا منها : الوقاحة ، والثرثرة ، والوساخة والشكاسة، والعناد، والإسراف، والنهمة، والبِطْنة، والتأنق في المطاعم، والفخفخة. والزنا أقوى الأعذار عندهم، فيكفي فيه الإشاعة، وإن لم تثبت، إلا أن المسيح عليه السلام لم يقر منها إلا علة الزنا ، وأمّا المرأة فليس لها أن تطلب الطلاق مهما تكن عيوب زوجها ، ولو ثبت عليه الزنا ثبوتًا» . اهـ .

ويشترط على الزوج أن يعطي زوجته المطلقة وثيقة طلاق ، ويجوز لها أن تتزوج بآخر ، ولكن لا يمكنها الرجوع إلى الزوج الأول في حالة طلاقها من الثاني أو وفاته. جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية : «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه، لأنه وجد فيها عيبًا شيئًا وكتب لها كتابًا ودفعه إلى يدها، وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها زوجة - لا

يقدر لرجلها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست، لأن ذلك رجس لدى الرب» .

الطلاق في المذاهب المسيحية :

ترجع جميع المذاهب المسيحية التي تعتنقها أمم الغرب المسيحي إلى ثلاثة مذاهب :

١ - المذهب الكاثوليكي ٢ - المذهب الأرثوذكسي . ٣ - المذهب البروتوستنتي .

فالمذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريمًا باتًا ، ولا يبيح قصم الزواج لأي سبب مهما عظم شأنه، وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد في نظره مبررًا للطلاق، وكل ما يبيحه في حالة الخيانة الزوجية، هو التفرقة الجسدية بين الزوجين ، مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية، فلا يجوز لواحد منهما في أثناء هذه الفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر، لأن ذلك يعتبر تعددًا للزوجات، والديانة المسيحية لا تبيح التعدد بحال . وتعتمد الكاثوليكية في مذهبها هذا على ما جاء في إنجيل مرقص على لسان المسيح ، إذ يقول : «ويكون الاثنان جسدًا واحدًا ، إذن ليسا بعد اثنين ، بل جسد واحد ، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان»[1] .

والمذهبان المسيحيان الآخران : الأرثوذكسي والبروتوستنتي ، يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة، من أهمها الخيانة الزوجية ، ولكنهما يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك، وتعتمد المذاهب المسيحية التي تبيح الطلاق ، في حالة الخيانة الزوجية على ما ورد في إنجيل متى ، على لسان المسيح ، إذ يقول : «من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني»[2] .

وتعتمد المذاهب المسيحية في تحريمها الزواج على المطلق والمطلقة على ما ورد في إنجيل مرقص ، إذ يقول: «من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها ، وإن طلقت امرأة زوجها ، وزوجت بآخر تزني»[3] .

---

(١) مرقص ، إصحاح ١٠ ، آيتي ٨ و٩ .
(٢) إنجيل متى ، الإصحاح الخامس ، ٣٢ .
(٣) إنجيل مرقص ، الإصحاح العاشر ١١ ، ١٢٢ ، راجع الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد) . طبعة دار الكتاب المقدس . كما راجع نداء للجنس اللطيف ، ص ٩٧، ٩٨ . وفقه السنة ٢ ٢٠٩ - ٢١٠ .



ماذا لو كرهت الزوجة زوجها ؟ هل يحق لها الانفصال عنه ؟

يحدث في بعض الأحيان أن تستحكم كراهية زوجة لزوجها ، وتصبح لا تطيق الحياة معه ، وتشعر في قرارة نفسها أن استمرارها معه قد يفضي بها إلى عدم إقامة حدود الله في تعاملاتها وسلوكها وفي العشرة بالمعروف . ولقد رأينا فيما سبق كيف أن المنهج الإسلامي فيه من التوجيهات ما يجعل الحياة الزوجية حياةً سعيدة ترف عليها ظلال الحب والإقبال ، وكيف أنه وضع من الإجراءات ما يقضي على أي بوادر للكراهية والنفرة .

ولكن هذا وذاك قد لا يجدي مع زوجة من الزوجات ، فمشاعر القلوب شيء لا يملك المرء قدرة التحكم فيه ، فهل يُرغم الإسلام قلبًا من القلوب أن يحيا مشاعر لا يرضاها؟ هل يُجبر زوجة على علاقة تنغصها وتضايقها؟

إن المنهج الإسلامي الحكيم المُدرك تمامًا لحقيقة النفس الإنسانية وما يجرى فيها من عواطف وأحاسيس، كما يعطي للزوج حق طلاق زوجته التي يكرهها ولا يطيق الحياة معها، يعطي كذلك للزوجة حق الانفصال عن زوجها الذي تكره ولا تطيق الحياة معه :

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

فللزوجة أن تتخلص من رباط الزوجية ، وتعوض الزوج عما أنفقه عليها من تكاليف الزواج . ويُعْرَف هذا النوع من الانفصال ، في الفقه الإسلامي باسم (الخُلع) . وتعريفه عند الفقهاء هو : «فراق الرجل زوجته على بدلٍ يأخذه منها» .وفي هذا الإجراء عدلٌ وإعطاء كل ذي حق حقه ، فهي قد قطعت رباط الزوجية بلا ذنب متعمد من الزوج، فيجب عليها في مقابل ذلك أن تعوضه عما دفعه لها من مهر وعما أنفقه من تكاليف الزواج.

وكما يضحي الزوج بالمال ولا يسترد شيئًا مما كان قد أعطاه للزوجة حين يطلقها برغبته :

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا

مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء : ٢٠ - ٢١] .

فعليها كذلك أن تعيد إليه ما كانت أخذته منه من مهر أو بعضه إذا أرادت الطلاق برغبتها .

وتتم عملية الخُلع أو المبارءة بين الزوجين برضاهما داخل بيتهما ولا يستلزم هذا الإجراء حكمًا قضائيًا، لأن ما يمكن إتمامه بين الزوجين في بيتهما لا داعي لإعلانه وعرضه داخل قاعات المحاكم .

ولكن في حالة عدم موافقة الزوج على الخُلع أو المبارءة ، فللزوجة أن تلجأ إلى القضاء الذي من دوره إعطاء الزوجة حقها في الخُلع حتى تحفظ حدود الله ولا تتعداها .

ويلاحظ أنه لا يجوز للرجل أن يضيق على المرأة ويضاجرها حتى تفتدي منه وتختلع :

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴿١٩﴾﴾ [النساء : ١٩] .

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

ويرى الإمام مالك والأوزاعي أن الزوج لو أخذ منها شيئًا وهو مضار لها وجب عليه أن يرد ما أخذه إليها، ويكون الطلاق رجعيًا .

وقوع الخلع في الجاهلية :

ذكر ابن دريد في أماليه : أن عامر بن الظرب زوّج ابنته من ابن أخيه عامر بن الحارث بن الظرب. فلما دخلت عليه نفرت منه ، فشكا إلى أبيها، فقال : لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

حالات للخلع حدثت في عهد الرسول :

ذكر الإمام مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصاري أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس فقال رسول الله ﷺ : «من هذه؟» قلت : أنا حبيبة بنت سهل. فقال : «ما شأنك؟» فقالت : لا أنا ولا

ثابت بن قيس . فدعاه النبي عليه السلام. فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ : «**هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر**» فقالت حبيبة : يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي . فقال رسول الله ﷺ : «**خذ منها**» فأخذ منها وجلست في أهلها .

وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ : «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت : نعم. قال رسول الله ﷺ : «**اقبل الحديقة وطلقها تطليقة**».

وروى ابن مردويه في تفسيره وابن ماجة بإسناد جيد مستقيم عن ابن عباس : أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ ، فقالت : والله ما أعيب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ولكنني أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضًا . فقال النبي ﷺ : «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت : نعم . فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد .

وروى ابن جرير بإسناد عن أبي جرير أنه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل؟ قال : كان ابن عباس يقول : إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي أنها أتت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبدًا ، إني رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل في عدة، فإذا هو أشدهم سوادًا ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجهًا . فقال زوجها : يا رسول الله إني قد أعطيتها أفضل مالي ، حديقة لي ، فإن ردت علي حديقتي . قال : «**ما تقولين؟**» قالت: نعم، وإن شاء زدته. قال : ففرق بينهما .

تلك هي أشهر قضايا الخلع في عهد رسول الله ﷺ ، والتي يتبين منها أن زوجتين لثابت ابن قيس قد طلبتا الخلع واستجيب لطلبهما ، مما يدل على عظمة المنهج الإسلامي المُدرك تمامًا لحقيقة النفس الإنسانية والمحترم لرغباتها وعواطفها الحقيقية .

حالات أخرى للخلع حدثت على عهد الخلفاء الراشدين :

روى ابن جرير أن عمر أتي بامرأة ناشز ، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ، ثم دعا بها ، فقال: كيف وجدت؟ فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستني. فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها .

وفي رواية أخرى : أن امرأة أتت عمر بن الخطاب ، فشكت زوجها ، فأباتها في بيت الزبل، فلما أصبحت ، قال : كيف وجدت مكانك؟ قالت : ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة. فقال : خذ ولو عقاصها .

فالإمام عمر رضي الله عنه حاول أن يتأكد من أن هذه الزوجة تكره زوجها، وعندما ثبت له ذلك فرق بينهما .

كما أنه رضي الله عنه لم يحاول أن يتعرف على أسباب الكراهية، لأنها قد تكون مما تستحي المرأة أن تذكره. أو قد تكون غير كافية لإقناع السامع ، ولكنها كافية لتنغيص حياة من يحياها ليل نهار .

وهناك حالة خلع حدثت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قالت صاحبتها الربيع بنت معوذ بن عفراء: كان لي زوج يقل على الخير إذا حضرني ويحرمني إذا غاب عني. فكانت مني زلة يومًا فقلت : أختلع منك بكل شيء أملكه. قال : نعم. قالت : ففعلت. فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع وأمره أن يأخذ عقاص رأس فما دونه. أو قالت : ما دون عقاص الرأس.

هل يجوز للزوج أن يأخذ في الخلع أكثر مما أعطى زوجته ؟

يرى جمهور العلماء جواز أخذ الزوج في الخلع أكثر مما أعطى زوجته. واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقالوا : فهذا عام يتناول القليل والكثير .

ويرى الشعبي والزهري والحسن البصري أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ زيادة على ما أعطى زوجته، لأنه من باب أخذ المال بدون حق، وحجتهم أن الآية في صدد أخذ ما أعطى الرجال للنساء، فلا تجوز الزيادة.

والراجح أن هذا الموضوع يتم بالتراضي بين الزوجين، وإن كانت الزيادة مكروهة .

هل يجوز الخلع في فترة الحيض أو في طهر قد جامعها فيه؟

يجوز الخلع في أي وقت ، ولا يستلزم له وقت معين . بدليل أن الله تعالى أطلق الحكم ولم يقيده بوقت دون آخر :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

كما أن النبي ﷺ حكم بالخلع في قضية امرأة ثابت بن قيس دون أن يسألها عن حالها. والحيض ليس وقوعه نادرًا عند المرأة .

هل تصبح المرأة صاحبة التصرف في أمرها عندما تختلع ؟

قال جمهور الفقهاء ، ومنهم الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب : إن المرأة تملك نفسها ويصبح أمرها بيدها عندما تختلع، ولا يملك الزوج رجعة لها؛ لأنها ضحت بالمال لتتخلص من الزوجية، ولو كان يملك رجعتها لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له. وحتى لو رد عليها ما أخذ منها وقبلت ليس له أن يرتجعها برضاها في عدتها ، ويعقد عليها عقدًا جديدًا وهذا يجرنا لطرح السؤال التالي :

ما هي عدة المختلعة ؟

عدة المختلعة حيضة واحدة ، لما رواه النسائي بإسناد رجاله ثقات أن النبي ﷺ – في قضية ثابت بن قيس – قال له : «**خذ الذي لها عليك وخل سبيلها**» . قال : نعم . فأمرها رسول الله ﷺ أن تعتد بحيضة واحدة وتلحق بأهلها .

وهذا هو مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وابن عباس ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وإسحاق بن راهويه .

وأيده ابن تيمية ، قال : من نظر هذا القول وجده مقتضى قواعد الشريعة ، فإن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ، ليطول زمن الرجعة ، ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة في مدة العدة، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود براءة رحمها من الحمل ، وذلك يكفي فيه حيضة كالاستبراء .

هل الخلع فسخ أم طلاق ؟

يرى الجمهور أنه طلاق بائن ، بدليل قول الرسول ﷺ في قضية ثابت : «خذ الحديقة وطلقها تطليقة».

ويرى جمع من المحققين أنه فسخ ؛ لأن الله تعالى ذكر في كتابه الطلاق ، فقال : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

ثم ذكر تعالى الافتداء .

ثم قال : ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ۝٢٣٠﴾ [البقرة : ٢٣٠] .
فلو كان الافتداء طلاقًا لكان الطلاق الذي لا تحل له فيه إلا بعد زواج ، هو طلاق الرابع .
وتظهر فائدة هذا الخلاف في كون الخلع يحسب طلقة أم لا ؟

فمن رأى أنه فسخ لم يحتسبه طلقة ، فمن طلق امرأته تطليقتين ثم خالعها ، ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك، وإن لم تنكح زوجا غيره ، لأنه ليس له غير تطليقتين، والخلع لغو .

ومن رأى أن الخلع طلاق ، قال : لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجًا غيره ، لأنه بالخلع كملت الثلاث طلقات .

وتفصيل هذه المسألة (وغيرها من المذكورة قبلها) مبسوط في كتب الفروع ، فعلى من أراد التوسع أن يرجع إليها[1] .

ولا يسع المرء في نهاية هذا الموضوع إلا أن يقول : إن المنهج الإسلامي الحكيم المُدرِك تمامًا لحقيقة النفس الإنسانية وما يجري فيها من عواطف وأحاسيس ، لا يجبر زوجة من الزوجات على علاقة تنغصها وتضايقها ، ولا يرغمها أن تحيا في كنف مشاعر لا ترضاها ولا تستسيغها فما أعظم هذا المنهج وما أحكمه !



(١) انظر : نيل الأوطار ٦ : ٢٤٦ ، وبداية المجتهد ٢ : ٥٧ ، والأحوال الشخصية ٣٢٩ ، والقرطبي ٣ : ١٤٣ ، وابن العربي ١ : ١٩٥ ، وابن كثير ١ : ٢٧٦ ، والرازي ٦ : ١٠٩ ، وزاد المعاد ٤ : ٢٧ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة







عندما يلتقى الزوجان فى حياتهما الجديدة تواجههما العديد من الأزمات الطارئة الناتجة عن تباين النشأة والبيئة وربما المستوى الاجتماعى وما يصحب ذلك من اختلاف فى أسلوب التفكير والنظر لكل أمر من الأمور .

ويحدث فى كثير من الأحيان أن يتغلب كل من الزوجين على ما يصنعه الآخر من مشكلات وذلك بالتماس الأعذار وتقديم بعض التنازلات والاستعداد لبعض التجاوزات حتى تسير المركب ويحدث التفاهم والانسجام.

وفى أحيان قليلة تقف هذه الأزمات سداً منيعاً فى وجه استمرارية الحياة الزوجية !! ومهما حاول المقربون الوساطة لإصلاح ذات البين وتقريب وجهات النظر فإن الأمور تأخذ طريقاً مسدوداً ويحدث ما لا تحمد عقباه !!

وقد كان - ولا يزال - القرآن الكريم حريصاً على استمرار ودوام الحياة الزوجية بصورة طيبة ، وأوضحت ذلك السنة النبوية المطهرة فيما ورد إلينا من أحاديث شريفة عن رسولنا الكريم ﷺ ، استقينا منها أسساً وقواعد محكمة لتنظيم العلاقة بين الزوجين وتحديد أسلوب التعامل والتفاهم بينهما بما يحقق جواً من الود والتراحم .

وقد حرص مؤلف هذا الكتاب على تجميع الوصايا المأخوذة من القرآن والسنة التى تسبغ على كل زوج الاستعداد النفسى للتضحية من أجل الآخر ، وتؤهلهما لأن يؤثر كلٌ منهما الآخر على نفسه.

وتطرق المؤلف إلى الأساليب التى أوصى بها الحكماء والخبراء وعلماء النفس حتى يسلك الزوج سلوكاً محبباً إلى قلب زوجته ، وبالمثل تتمسك الزوجة بالسلوكيات المحببة إلى عقل وقلب زوجها .

إننا نعتقد أن هذا الكتاب سوف يذيب الكثير من الجمود فى الحياة الزوجية - بإذن الله - ويجعل بين الزوجين موده ورحمة . والله يهدى إلى سواء السبيل.

الناشر

